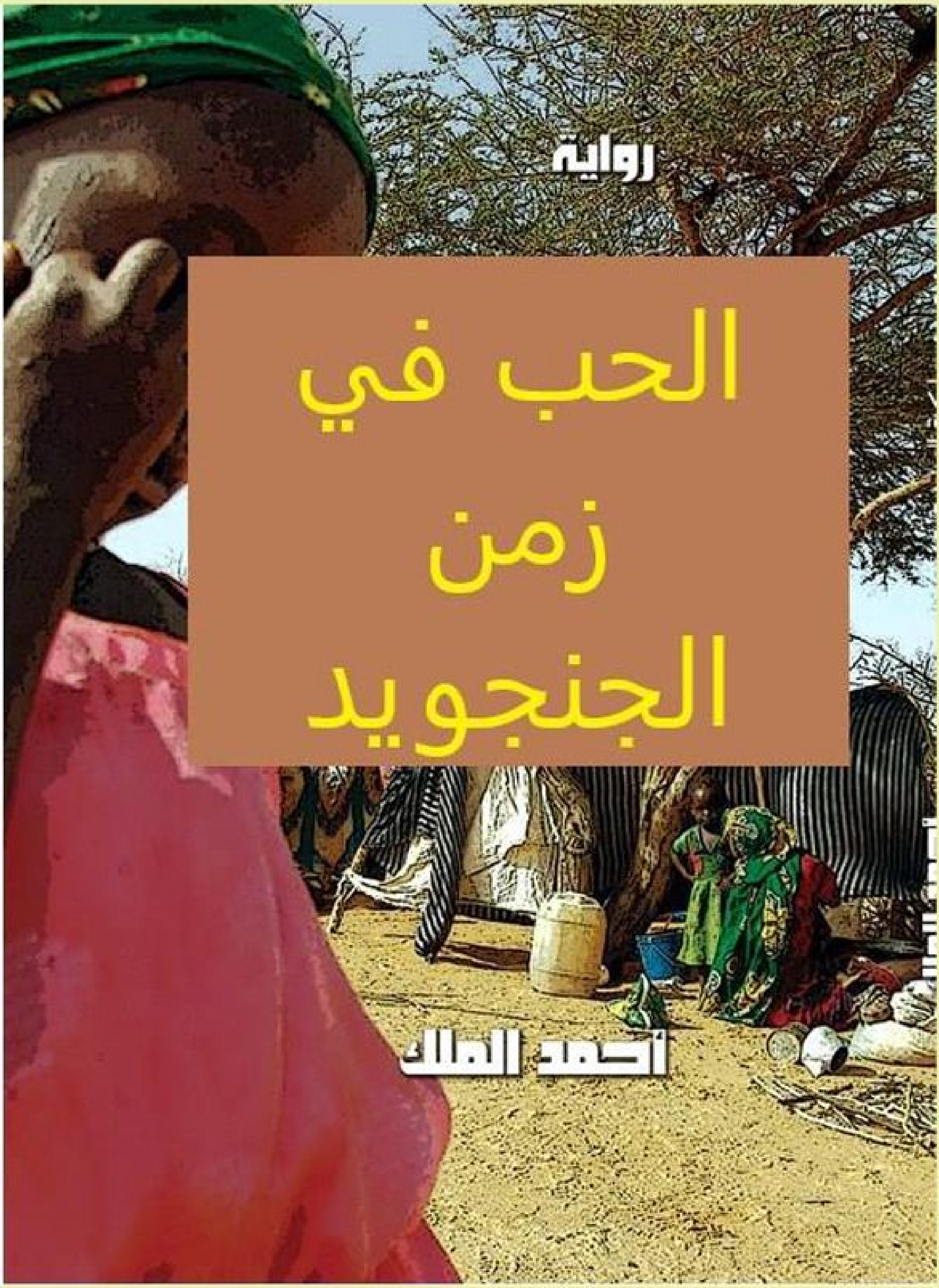

رواية
الحب في
زمن
الجنجويد
أحمد الملك


رواية
الحب في
زمن
الجنجويد
أحمد الملك

أحمد الملك

الحُب في زمن الجنجويد

رواية

الطبعة الثانية 2018

دقت الساعة المتعبة

رفعت أمه الطيبة

عينها..!

(دفعته كعوب البنادق في المركبة!)

دقت الساعة المتعبة

نهضت؛ نسقت مكتبه

صفعته يد

أدخلته يد الله في التجربة!

دقت الساعة المتعبة

جلست أمه؛ رتقت جوربه

وخزته عيون المحقق

حتى تفجر من جلده الدم والأجوبة!

... ...

دقت الساعة المتعبة!

دقت الساعة المتعبة!

أمل دنقل

إهداء

الى الشهيد هزّاع ورفاقه ....

من صنعوا بدمائهم الطاهرة غدنا الأفضل الآتي.

الى إكسافير لوفان

والى شموس وتامر.

الوقت ليس مناسبا للموت في هذه البلدة الغارقة في الرذاذ ورائحة نوّار شجر السنط: الساعة الخامسة صباحا، صوت أذان الفجر يتهادى في ندى الضوء الوليد فوق كثبان الرمال، وأشجار الطلح المتناثرة في المدى الغارق في ضوء الفضة.

إستيقظ الملازم معاوية إبراهيم عثمان على صوت أقدام الجنود، بدا له صوت آذان الفجر، القادم عبر الرمال، مختلطا بصوت خطوات الموت، كأنه قادم من عوالم أخرى. تحول صوت المؤذن في ذاكرته الى صوت ذلك الرجل الذي كان يطوف القرى على حماره ليعلن أسماء الموتى الجدد.

كان يشعر أن هذا هو يومه الأخير في هذا العالم، لم يشعر بالخوف، كل فجر حين يتعالى صوت أقدام الجنود في الممر أمام الزنازين، ثم صوت المفاتيح في أقفال الأبواب، يتم سحب عدد من المعتقلين الى الخارج، لا يعودون مرة أخرى. يظل الموت الزائر الأكثر حضورا في المكان، لكن ضوضاء الحياة لا تنقطع في المكان أبدا، في نفس اليوم يحضر معتقلون جدد، متمردون ضد الدولة صدرت عليهم أحكام بالاعدام في محاكم عسكرية لم تستغرق سوى دقائق، متهمون في محاولات إنقلابية، تجار وطلاب متهمون بالتعاون مع حركات التمرد.

إنفتح باب الزنزانة وطلب منه أحد الجنود أن يخرج بسرعة، طلب من الجندي أن ينتظر قليلا حتى يرتدي حذائه، لكن الجندي رد بصفاقة:

لن تحتاج إليه بعد الآن!

تتكون مجموعتهم من ستة أفراد وقعوا جميعا قبل أسابيع في الأسر، وهم يقومون بتغطية إنسحاب قواتهم، بعد ان إستطاعت قوات الجنجويد إستعادة الحامية العسكرية التي إستولت عليها قواتهم المتمردة قبل أشهر. في الخارج كان الجو لطيفا، العصافير تحتفل بالنهار الجديد دون أن تكترث لرياح الموت القادم مع أول خيوط ضوء الشمس، في ضوء الفجر لاحت في السماء سحب كثيفة تبشّر بأمطار غزيرة. ما أن خطا أول خطوة خارج مبنى السجن حتى لامست وجهه قطرات من المطر، كأنه يستعرض المطر مثل حرس شرف في الطريق القصير الذي ينتهي في الموت. كان عاشقا للمطر، في طفولته الأولى كان المطر جزءا من حياته، رائحة الأرض ورائحة الحقول، في طفولته الثانية في مدينة صغيرة بعيدة في عمق الصحراء، كان يشعر دائما بحنين غامض للمطر، لرائحة الأرض ورائحة نوّار أشجار النيم الغارقة في المطر، حين يسقط المطر في أحيان نادرة في تلك المدينة النائية، كان يحتفل به بقضاء يومه كله خارج البيت، كأنه يبحث عن أصداء طفولة سعيدة غابت فيما وراء الصحراء.

كان الجندي محقا، لم يستغرق الوصول لساحة الاعدام سوى دقيقة واحدة مشيا، قام الجنود بربطهم الى الأعمدة وعصبوا أعينهم، أشرعت فرقة الاعدام بنادقها وصوّبت نحو صدور المحكومين في إنتظار أمر إطلاق النار. حاول الملازم معاوية إبراهيم عثمان أن يقوم بتثبيت صورة واحدة في واجهة ذاكرته، لتصبح جسرا بين موته وحياته التي لم يبق فيها سوى ثوان قليلة. قفزت صورة سميرة وتراجعت صور كثيرة أخرى، لم يجد فرقا في صورة سميرة بين سميرة شقيقته وسميرة الأخرى كما كان يسميها، سميرة شقيقته كانت تعبر في كل مكان مثل نسمة، لا يلاحظ أحد وجودها رغم أن وجودها هو الذي يجعل الحياة في هذا الجحيم ممكنة، منذ ان جاء جدهما لاصطحابهما للعيش معه في مدينته البعيدة بعد وفاة والديهما.

مرّت الأيام في مدينة الصحراء والقطارات والنخيل، وتفتحت سميرة عن وردة برية جميلة، رغم مسحة الحزن التي ستبقى في عينيها الى الأبد من واقعة فقد والديها. رآها جالسة فوق بساط قديم مصنوع من وبر الجمال تحت شجرة النيم، وجدته المُسنة تمشّط لها شعرها في جدائل طويلة ناعمة، وتمسحه بالزيت والشحم.

في سيل الصور التي تدفقت في ذاكرته كأنها تهرب من تقدم الموت، كأنها فئران تقفز من السفينة المشرفة على الغرق. رأى نفسه صبيا صغيرا يتجول في أزقة المدينة الصغيرة النائمة بين النهر والجبل والصحراء، بملابس رثة وشعر طويل معجون في الغبار والعرق،

تبدو تلك المدينة الغارقة في ضجيج القطارات القادمة والمغادرة عبر الصحراء، في صور ذاكرته مثل كائن خرافي ملقى على حافة الصحراء. كل شئ ذائب في غبار الحنين والقيظ، حتى جدران البيوت، تبدو ذائبة في جحيم القيظ، حتى النهر يبدو مثل خيط ذائب من القصدير.

طوال فترة تمرده وسجنه كان يعيش على ذكريات وصور جدته التي صارت أما له منذ وفاة أمه، وسميرة شقيقته، وسميرة بنت خالته التي كان يسميها سميرة الأخرى . لم يكن قد تبقى لشقيقته في الدنيا شخص غيره سوى جدته، بعد أن توفي والديهما في حادث أثناء رحلة الحج، كان يشعر دائما بالخوف من المسئولية التي ألقاها والده الراحل على عاتقه قبل رحيله.

حين سافر والداه في رحلتهما التي لن يعودا منها، وقف والده في لحظة الوداع ليقول له: لقد أصبحت رجلا، ستكون مسئولا من أختك حتى نعود! سيظل يحمل الأمانة منذ تلك اللحظة وحتى لحظة وقوفه أمام فريق الاعدام.

إنتابه خوف غريب حين سمع والده وهو يوصيه على سميرة، لم يتجاوز عمره آنذاك إثني عشر عاما، لم يكن يفهم بالضبط ما الذي يجب عليه أن يقوم به. وقف أمام والده وقد غمرت وجهه موجة من الجدية، لم تكن سوى إنعكاس للخوف الذي إجتاح دواخله حتى شعر ببرودة في أطرافه، كأنه كبر فجأة في تلك اللحظة فقط ليقبل تحمّل تلك المسئولية، لكنه كان يشعر فقط بالخوف، كأنه فوجئ بوصية والده، لم يكن يفكر في شئ آنذاك أبعد من أحلام طفولته وحبه للعب والتجول في أزقة المدينة الصغيرة. لكن تلك اللحظة بكل ومضات الخوف والرجاء إنقضت سريعا. تراجع شعوره بالمسئولية نتيجة وصية والده، حين جاءت خالته مع إبنتها وإبنها الصغير من قريتهم البعيدة لتقيم معهم لحين عودة والديهم. خالته إمرأة قوية الشخصية، طيبة القلب، كانت زوجة لمزارع وسكير محلي، هجر الزراعة الى التجارة التي لم يحقق فيها أيضا نجاحا يذكر، قبل أن يصبح مسئولا في الإدارة المحلية بعد تعلقه في مؤخرة قطار أحد الانقلابات العسكرية، فقد كان مدمنا على إرسال برقيات التأييد كلما وقع إنقلاب عسكري، لحسن حظه لم يكن أحد ينتبه لبرقيات التأييد للإنقلابات الفاشلة، جهاز الراديو كان دائما جاهزا وبطارياته جديدة لالتقاط أنباء أية إنقلاب عسكري، لم يرتكب سوى خطأ واحد طوال سنوات لمطاردته للتغيير، حين أرسل مرة برقية تأييد ليكتشف لاحقا أن الانقلاب كان في جزر القمر! كان مخمورا حين سمع الخبر، وبسبب عجلته لحجز مقعد متقدم في التأييد خرج من البيت مترنحا الى مكتب البريد القريب، الذي كان يعمل لسوء

حظه في ذلك اليوم لفترة مسائية إضافية، وقام بإرسال البرقية. حاول موظف البريد الذي كان يعرفه بسبب كثرة تردده لإرسال برقيات التأييد، حاول إقناعه أن الأحوال هادئة ولم يسجل أية تحرك عسكري، وقام بفتح المذياع أمامه فإنطلقت أغان عاطفية إخترقت أذنيه مثل مارشات عسكرية. لم يكن يثق في أية شئ قدر ثقته في أذنه وفي قوة مذياعه الانقلابي، لم يفقد ثقته في مذياعه بعد ان اتضح ان الانقلاب في جزر القمر. لكنه توقف عن إرسال برقيات تأييد الانقلابات المسائية، حتى أنه أبرم إتفاقا مع موظف البريد ألا يقوم بإرسال برقيات التأييد المسائية الا بعد أن يقوم بتأكيد طلب إرسالها صباح اليوم التالي.

بعد وصول خالته مع اطفالها الى البيت وتحملها مسئولية كل شئ، شعر معاوية بالأمان، ونسي كل الهواجس التي عبرت في ذاكرته لحظة وداع والديه، واصل نفس برنامج حياته بضراوة أشد كأنه كان يشعر بوقع خطوات الموت، تهدد حتى مواسم براءته.

رأى نفسه يفتّش حرس الشرف وهو يقف فوق منصة عالية كانت تبدو مثل جسر مغزول من خيوط الضوء الملونة، معلّق مثل مرآة فوق النهر. كان الحرّاس يقفون في صفوف طويلة متوازية، دون أن تصدر عنهم أية إشارة تنبئ بأنهم كانوا أحياء، يحمل بعض الحرّاس آلات موسيقية، كانت تبدو في ضوضاء الحياة في النهر كأنها مخلوقات من عوالم أخرى، فيما بدت الموسيقى التي كانت تملأ الكون ، كأنها تصدر من النهر أو من مكان مجهول في الفضاء.

تتصاعد العاصفة الموسيقية التي تبدأ في صورة دوامات ضوئية من الرياح، تتسلق ببطء أعمدة الضوء المتصاعدة من النهر الى السماء. كل الأشياء أمامه تبدو واضحة، بأبعادها الثلاثية. يستحيل تخيّل بقاء العالم من دون هذه الفوضى الضوئية، ثم لا تلبث أن تتبخر كل الأشياء فجأة في قيظ خيوط ضوء النهر كأنها لم توجد قط. رأى النهر نفسه مثل مسن يضرب في الأرض دون هدى بسبب ضباب الذاكرة، شاحبا وخاليا من الحياة مثل جثة نهر ملقاة على قارعة الصحراء. إستيقظ مذعورا بعد قليل حين بدأ لون المياه الذي كان في البداية أشبه بلون الطين يتحول الى لون الدم. حين إستيقظ من النوم مد يده آليا وتناول كوب الماء بجانبه وإبتلع قرصا واحدا من عقار فولتارين، يشعر بنفسه يختفى تدريجيا داخل آلام عظامه حين يتناول الدواء. يشعر كأنّ جسده لا يتخلص فقط من آلامه بل حتى من عظامه، حتى أنه حين يغادر الفراش يشعر بجسده المرن، الخالي من العظام لا يقوى على الوقوف وحده ما لم يستند على شئ ما حوله. نظر الى ساعة الجدار، كانت تشير الى التاسعة صباحا.

في الحمّام، فتح صنبور الماء فتساقطت قطرات قليلة، غسل منها وجهه ومسح شعره، منذ أن إختفى النهر بات إستخدام الماء مقصورا على الضروريات التي يحددها مدير القصر الذى تعينه الشركة الوطنية التى تدير الوطن. بحث عن الجندي الصغير الذي كان يساعده في إرتداء ملابسه العسكرية فلم يعثر له على أثر. سمع صوت ضوضاء في فناء القصر، فحاول أن يسترق النظر خلسة من خلف إحدى النوافذ، أملا في أن تكون هذه الضوضاء صادرة عن مظاهرة، او كارثة تنبئ عن وجود حياة في الوطن. في المرات النادرة التي حاول فيها معرفة ما يدور في الخارج كان يتلقى دائما تحذيرا قويا من مندوب الشركة الوطنية: كن حذرا سيدي الرئيس، إكتشفنا مؤامرة من بعض الحركات المعارضة بالتنسيق مع بعض السفارات الأجنبية التي تستهدفك. يشعر أن العيون التى كانت تحصي أنفاسه كانت أضعاف تلك التي تسهر على حماية الوطن! توقف قليلا حين تذكر الوطن، شعر بإعصار الحنين في الذاكرة يقتلع في طريقه أكثر وقائع ذاكرته ثباتا: قال بصوت مرتفع ليتأكد أنه لم يكن يحلم:الوطن، الوطن! هل قلت أنا الوطن؟ بدت له الكلمة غريبة لم يستطع تبين إن كان هو من ردّدها أو همس بها شخص ما.

بسبب الرقابة والتحذيرات الأمنية توقف منذ سنوات عن ممارسة هوايته القديمة : مراقبة النجوم، تعيده تلك اللحظات التي ينفصل فيها عن واقعه الأرضي ويتوه في الفضاء، الى تفاصيل زمان طفولته السعيدة في بلدة نائية على حافة الصحراء، كانت أشباح الغرباء وقوافل المهربين تعبرها مساء في الرحلة الطويلة الى المجهول.

من خلف الستائر الكثيفة رأى عددا كبيرا من العمال الغرباء يقومون ببناء جدار بين القصر والحديقة الضخمة التي كانت تطل على النهر، والتي كانت مياه النهر تغمرها أحيانا في موسم الفيضان، فشاهد سكان القصر وزواره أسماك البياض والبلطي وهي تسبح في حديقة القصر. شوهد أيضا تمساح ضخم قبل سنوات، كان يشق ترعة الماء الضخمة في الحديقة جيئة وذهابا كأنه رئيس منتخب يستعرض حرس الشرف ضمن مراسيم تنصيبه.

إبتعد من النافذة حين إقتربت منها إحدى كاميرات التصوير التابعة للشركة الوطنية التي تسبح في الهواء، يا للكارثة! هل أقدموا على بيع حديقة القصر؟ هل ستختفي العصافير القليلة التي بقيت بعد رحيل النهر، تغرد في أصابيح النسيان فوق أشجار اللبخ العتيقة التي غرسها الانجليز حين قاموا بتشييد القصر. تعيد بغنائها بعض إشارات الزمن الغابر، فتعالج بعض جروح القلب، التي يكتشف أنها لا تزال تنزف في حمى التذكر في ساعات الأصائل. الحديقة التي شهدت كل إحتفالات الوطن وثوراته المجيدة. الحديقة التي شهدت إنتفاضات

الوطن في العهد الكولونيالي والعهود الوطنية. والتي شهدت أعراس الموتى الجماعية في القرن الماضي، الموتى الذين أرسلوا الى شريكات موتهم في الدار الآخرة بإحتفالات دنيوية صاخبة. وحفلات تسلم أوراق إعتماد السفراء في مختلف العهود.هل قاموا أيضا ببيع أشجار الجهنمية وورد الحمير والورد الانجليزي؟ و أشجار المهوجني واللبخ؟ تذكر مندهشا مقولة سمعها من شخص ما لا يذكر شيئا من تفاصيل صورته، حين دار نقاش في القرن الماضي في إحدى جلسات مجلس الوزراء، حول قطع هذه الأشجار العتيقة التي غرسها الاستعمار وإستبدالها بجيل جديد من الأشجار الوطنية. علّق أحدهم ضاحكا: من يقطع أشجار اللبخ يمكنه أيضا قطع رؤوسنا!

سيكتشف لاحقا أنهم: قطعوا أشجار اللبخ وقطعوا رؤوسنا أيضا سيدي الرئيس!

قرر أن يخرج بنفسه بعد قليل لمعرفة ما يحدث في الخارج. قبل سنوات حين إختفى النهر، إختفت في البداية العصافير ثم إختفى العشّاق الذين كان يراهم من النافذة يسيرون في خطوط مستقيمة مثل الجنود، أثناء قلق الانتظار، يلوّحون بالورود الذابلة بسبب القيظ، أملا في أن يتعرف عليهم عاشق بديل في فوضى الحب التي تبدو وثيقة الصلة بتقلبات مزاج النهر العجوز. فينتعش الحب حين تتدفق المياه في شرايين النهر فيستعيد شبابه في موسم الفيضان، وتنحسر أعداد العشاق حين تنحسر مياهه ويستعيد صفاء المسن وحكمته، وإختفت السفن التي كانت تبحر بإتجاه السافنا مساء بأضوائها الملونة.

في ذلك الوقت كان لديه من المستشارين ما يفوق عدد العشاق في موسم الفيضان، أمر بتكوين لجنة تحقيق من مستشاريه إضافة لمندوب الشركة الوطنية للتحقيق في أسباب إختفاء النهر، أضاعت اللجنة وقتا طويلا في محاولة تتبع منابع النهر لتحديد أسباب اختفائه، وفحصت عشرات المستندات التي قدمها مندوب الشركة الوطنية الذي أبرز لهم في النهاية وثيقة رسمية بإمضاء السيد الرئيس، يوافق فيها على بيع النهر بضفتيه وبأسماكه وتماسيحه وطيور الجنة التي يهدهدها الموج على ضفافه! يفحص لإمضائه بحذر، فقد سبق أن أثبت خبراء الخطوط صحة توقيعه في وثائق لم يوقعها قط، يتوقف عند عبارة طيور الجنة التي يهدهدها الموج، أكثر من توقفه لفحص توقيعه: ما إسم الشاعر الذي كتب هذا التقرير؟ يعرف أن الحقيقة تختفي دائما في التقارير التي يقرأها خلف مثل هذه العبارات الشاعرية. قبل نصف قرن كان ورود مثل هذه العبارة في أحد التقارير التي تقرأ أمامه، يستدعي إستخدام مواهبه كملاكم سابق، حتى ان إجتماع مجلس الوزراء كان يستمر، بينما الوزراء متناثرين أرضا في قاعة الاجتماعات الواسعة وهو الوحيد الذي يجلس في مقعده

على رأس طاولة الاجتماعات، ما أن يستمع الى تقرير حول الوضع الاقتصادي المتردي يصاغ بعبارات شاعرية حتى يتحول اجتماع مجلس الوزراء الاسبوعي الى حلبة ملاكمة، الان، بعد أن تراجع العنف الى دواخله، لا يشعر بحقد ولا حتى تجاه الشعراء. حتى انه لا يمانع في قراءة أية شئ يقدم إليه والموافقة عليه، يشعر كأن العبارات الشاعرية التي تخفي الفساد، تصاغ خصيصا للحفاظ على صحته، للتحكم في نزوات مصرانه العصبي، لضبط ضغط دمه، بأفضل مما تفعل إرشادات طبيبه وأقراص دوائه. يحاول ان يلهي نفسه عن حقيقة أنه كان يتعفن في عزلته الشاعرية المجيدة بين أكوام التقارير الكاذبة، وركام الذكريات التي يتسلى في الأمسيات في محاولة إعادة تصنيفها وإستبعاد الذكريات التالفة ومضاهاة الحقيقة مع الصور الأرشيفية التي يبثها جهاز التلفزيون، لحفظ الذكريات التي يثبت أنها حقيقية وإلقاء الذكريات التي لم تحدث في سلة المهملات.

منذ ذلك الوقت تناقص عدد مستشاريه حتى إختفوا تماما. حين يسأل عنهم كانت الاجابة دائما واحدة: بسبب الأزمة الاقتصادية سيدي الرئيس قمنا بتخفيض عدد مستشاريك وحرّاسك، قمنا بتقليص عدد السفارات والوزارات سيدي الرئيس، تقوم الشركة الوطنية بتعيين موظفين مؤقتين تدفع لهم أجرتهم يوميا يؤدون كل أعمال الحكومة في مواسم ضغط الحسابات وبداية السنة المالية الجديدة، ويحال معظمهم بمجرد نهاية الموسم الى الصالح العام المؤقت، حيث يتم إستدعائهم مرة أخرى في نهاية السنة المالية الجديدة! يا لدهاء هؤلاء السماسرة: وزير يعمل (باليومية)! يتسلى في وحدته، وحدة رئيس لا يعلم شيئا عما يحدث خارج حدود غرفة نومه ومكتبه المجاور، يتسلى أثناء بحثه في المستندات القليلة التي يعثر عليها في مكتبه عن أية دليل يشير الى وجود الوطن، يفحص حتى الصور القديمة التي يظهر فيها وهو يقص الشريط إيذانا بإفتتاح مشروعات منسية، يحاول إقناع نفسه أن الشخص الذي يظهر في الصور هو نفسه العجوز الغارق في أسمال وحدته، وأنه يرى في الصور الوطن الذي كانت حدوده تمتد حتى خط الإستواء، وأن النهر كان موجودا ويجري أمام القصر قبل أن تطاله يد الخصخصة.

يتسلى بفكرة الوزير الذي يعمل باليومية، أخرج ورقة وقلما وكتب صيغة مقترحة لإعلانات وظائف الشركة الوطنية : بمناسبة إنعقاد الجمعية العامة للأمم المتحدة، وزير خارجية لمدة ثلاثة أسابيع، مواصفات الوظيفة: ترغب الشركة الوطنية في ملء وظيفة شاغرة مؤقتة لمدة أقصاها شهر واحد، إسم الوظيفة: وزير خارجية. ما الذي نتوقعه من المتقدم للوظيفة: يجيد إرتداء الزي الوطني والزي الأجنبي، يتحدث بطلاقة عدة لغات أولها الانجليزية، لديه معرفة جيدة بالسياسة الأمريكية. لديه إستعداد جيد للتعامل مع مزاعم منظمات حقوق

الانسان وتفسير تلك المزاعم بإعتبارها مجرد إستهداف للوطن ومكاسب الثورة! يستطيع أثناء حضوره إجتماعات الجمعية العامة كسب تعاطف عدد من الدول ضد الحصار الذي تفرضه علينا بعض الدول بدعوى إنتهاكنا لحقوق الانسان. فكر بمكر هل الأفضل قول مكاسب الثورة أم (مكاسب الثروة!) . وزير مالية لمدة ثلاثة أشهر ليقود المفاوضات مع صندوق النقد الدولي، ويضع بالمشاركة مع الخبراء الآخرين ميزانية العام القادم. خبرة في التعامل مع المؤسسات الدولية لا تقل عن عشر سنوات، خبرة في الخصخصة وبيع المؤسسات الوطنية الخاسرة. وزير داخلية لمدة ستة أشهر لإجراء الانتخابات وضمان الأمن في فترة الاقتراع، خبرة في التعامل مع المظاهرات، خبرة في التعامل مع صناديق الإقتراع، خبرة في تزوير النتائج، يمكنه ضمان فوز مندوبي الشركة الوطنية في أية إنتخابات دون أن يثير شكوك مستخدمي معهد كارتر والمنظمات الدولية الأخرى التى تراقب عملية الانتخابات.

حاول أن يتذكر إن كان قد وضع إمضائه على أية ورقة في الأيام الماضية، لكنه لم يتذكر شيئا، في الغالب فإن معظم قراراته الورقية كانت تصدر عقب إجتماعات مجلس الوزراء في القرن الماضي، ولكن منذ تسلمت الشركة الوطنية إدارة الوطن لم ينعقد مجلس الوزراء أبدا، كانت تصله أحيانا دعوات لوضع حجر الأساس لمشروعات تقوم الشركة الوطنية بتنفيذها بالتعاون مع شركات أجنبية، لكن هذه المراسم نفسها توقفت منذ سنوات وأصبح فقط يقوم كل عدة أسابيع بتسلم أوراق بعض السفراء، كانت فرقة موسيقية مستأجرة إضافة لحرس مستأجر يؤدون دور حرس الشرف.

أعد لنفسه كوبا من القهوة، شربه ببطء في غرفته قبل أن يرتدى ملابسه العسكرية الكاملة ويغادر القصر من الباب الرئيسي، رافقه بعض الحرّاس، على بعد خطوات قليلة من باب القصر إنتصب جدار ضخم إختفت خلفه حديقة القصر والشارع الذي كان يطل على النهر، رأى فوق الجدار بعض الجنود الغرباء دون أن يفهم سبب وجودهم في المكان.

سأل أحد حراسه: هل هؤلاء جنود الأمم المتحدة؟

قال الحارس: لا يا سيدي، هؤلاء حرس حدود، تابعون كما سمعنا الى دولة أشترت هذه الأرض! للتنقيب فيها عن بعض المعادن النادرة!

يا للكارثة! حرس الحدود أمام بوابة القصر! وأين الشعب؟

وقف الحارس محتارا قليلا قبل أن يشير بيده إشارة مبهمة بإتجاه الصحراء التي كان يجري فيها النهر في أزمنة الصخب، حين كان الوطن يستيقظ في السابعة صباحا على صدى أنغام فجر جديد يتسرب مع بخار رياحين النهر.

وأين مجلس الوزراء، أين الوزارات التي كانت تواجه النهر شرق الحديقة؟

تلك المنطقة لم تعد الآن في الوطن سيدي الرئيس!

كيف تكون مباني وزاراتي خارج الوطن وأنا هنا ؟

تم بيعها سيدي الرئيس!

كاد يسقط ارضا من فرط الصدمة، كيف يمكن بيع وزارة؟ وهل بيع أيضا مع وزاراتهم، المستخدمين الذين دفع الوطن الكثير من أجل إبتعاثهم الى جامعة اوكسفورد لتأهيلهم وفق أرقى نظم الادارة؟

سيدي الرئيس، لقد باعوا كل شئ، أحيل جميع هؤلاء الموظفين للصالح العام. تقوم الشركة الوطنية بطرح عطاءات بالمهام التي يجب ان تؤديها الوزارات المعنية، والشركة التي تفوز بالعطاء تقوم بتعيين موظفين لتنفيذ المهمة، حتى السفارات في الدول الاخرى تم اغلاقها سيدي الرئيس ويتم الاستعاضة عنها بمواطنين من رعايا الدول نفسها يتم تسليمهم أختام تجديد الجوازات ودفاتر استخراج الجوازات الجديدة. ويقومون بالعمل من منازلهم أو أماكن عملهم، ويحصلون على نسبة من الرسوم التي يتحصلون عليها عند تجديد جواز سفر مواطن. وفي المقابلات الرسمية وحفلات تقديم الاعتماد تدفع لهم الشركة الوطنية قيمة إستئجار بذلة وتكلفة سيارة الاجرة التي تقلهم الى المناسبات الرسمية، لقد رأيت في احدى دول القرن الافريقي سفير دولتنا يعرض للبيع تحت إحدى الاشجار في السوق الرئيسي في المدينة، الجوازات الوطنية، بأنواعها الأربعة: العادية والرسمية وجوازات رجال الاعمال والجواز الدبلوماسي. الجواز الدبلوماسي يكلف قليلا ربما بسبب لونه الأحمر، أما الجواز العادي فيمكنك شرائه مقابل مبلغ قليل من المال أو يمكنك إستبداله ايضا بملوة من الحبوب

او التمر. كل هذه الاوراق الرسمية معروضة للبيع سيدي الرئيس مع أكوام من الحبوب والتمر الوارد من الحجاز، حين رأيته سيدي الرئيس كان هناك عرض جيد، حين تشتري جوازا دبلوماسيا تحصل مجانا على ملوة من التمر الحجازي، تمر المدينة. كان السفير يضع بجانبه ايضا بندقية كلاشنكوف، سألته ان كانت للبيع أيضا، لكنه أوضح لي انها لدعاوي حمايته شخصيا بسبب الغارات المفاجئة لحركات التمرد على سوق المدينة! يا للمهزلة: سفير يجيد استخدام الكلاشنكوف، انها دبلوماسية الكلاشنكوف، وماذا بقي لنا لنفعله نحن العسكر؟ اصبحنا اسوأ من المدنيين، تنازلنا عن كل صلاحياتنا لمجموعة من قطّاع الطرق، فقط لأن الشركة التي إستولت على وطننا، لا ترغب في وجود جيش قوي. لا يجب أن يشعر كائن من كان في هذا الوطن بأنه مستقر في عمله، أيا كان عملك ستجد كل صباح جدول يوضح المهام التي يجب ان تقوم بأدائها. واذا لم تجد نفسك في الجدول، فأنت خارج الخدمة! عليك الانتظار في بيتك وسيتصلون بك حالما يوجد عمل لك! الان يقوم الجنجويد بكل شئ سيدي الرئيس، حتى المرور في الشوارع يقومون بتنظيمه، بالأمس أشار أحدهم لسائق احدى السيارات ليقف بسيارته جانبا، يبدو ان السائق لم يره، أو رآه وخاف من أن يضطر لدفع غرامة، فاستدار بسيارته وولى الادبار، هل تصدق رد فعل الجنجويد، أطلقوا نحو السيارة طلقات من مدفع دوشكا حوّلت السيارة الى كتلة من الحديد! يقومون أيضا بجباية الضرائب ومطاردة المنقبين عن الذهب في كل مكان ليدفعوا ضريبة الوطن، رغم أننا لا نعرف تحديدا أين هو هذا الوطن سيدي الرئيس! وإن كنا نحن نعيش فيه حقا أم في وطن آخر.

عرف أن البيع لن يتوقف عند الحديقة ، وحسب خبرته في التعامل مع مندوب الشركة الوطنية توقع سماع الإجابة التالية: هذا القصر رمز للحقبة الإستعمارية سيدي الرئيس، سنبني قصرا جديدا يعبر عن مشروعنا الحضاري وهويتنا الوطنية، وحتى لا ينسى في حضرة مندوب الشركة الوطنية، كما يحدث له دائما، أحضر ورقة كتب عليها بعض الأسئلة التي خطرت له: أين سيتم بناء القصر الجديد؟ وهل تبقت أرض في الوطن تكفي لذلك أم سيبنى القصر الجديد داخل حدود دولة مجاورة؟

في المطبخ وجد الطباخ يعد طعام الغداء، كان طباخا غريبا أحضرته الشركة الوطنية، بعد أن تقاعد طباخه الخاص منذ أشهر، لم يكن من سبيل للتفاهم معه سوى الإشارة، أشار له السيد الرئيس الى القهوة، قبل أن يعود الى مكتبه، لم يختف غناء العصافير تماما لكنه بات بعيدا بعد أن نهض الجدار الحدودي بينه وبين العصافير، إستيقظت العصافير لتجد نفسها في بلد آخر دون حتى أن تتجشم عناء الهجرة. إرتشف قهوته بصمت ثم وضع الفنجان

جانبا وبدأ على إيقاع غناء العصافير القادم عبر الحدود، في إحصاء النجوم في ذاكرته، يعيد عن طريق إعادة تثبيتها في فضاء صحراء الذاكرة، رسم عالم جميل تسرب من بين أصابعه وضاع في المتاهة.

بعد إنتهاء مأتم والديهما، حضر الجد محمد عثمان عبد الرحيم لإصطحاب معاوية وسميرة معه، يعمل الجد في مؤسسة السكك الحديدية في مدينة صغيرة في اقصى الشمال. تقع المدينة في حضن جبل صغير يبدو من على البعد و كأنه يمسك بالقرية بيده ويرفعها قليلا ليراها النهر، وليخفيها من بحر الصحراء الزاحف، الذي يترامي من خلف الجبل الى خارج حدود البصر.

الصحراء خلف الجبل تتناثر في دروبها عدد من القرى ببيوتها النوبية الطينية التي تبدو من على البعد كأنها معلّقة بين الأرض والسماء بفضل بحر السراب. بيوت المدينة مختلفة قليلا، في حي السكة حديد معظم بيوت العمال أكواخ طينية، أبوابها من الزنك ولها نوافذ خشبية صغيرة مغطاة بسلك النملية لمنع دخول البعوض والذباب. في الحي الرئيسي بيوت مبنية بأقواس رومانية، بحدائق صغيرة من أمام البيوت وخلفها، تنمو فيها أشجار الجهنمية وورد الحمير. وتنتشر في الطرقات أشجار النيم وأشجار اللبخ تخفف قيظ نهار الصحراء الطويل، كان يسكن هذه البيوت في الحقبة الاستعمارية عدد من موظفي الادارة الانجليزية، ثم أصبح يسكنها في العهد الوطني بعض كبار موظفي المجلس البلدي ومصلحة السكة الحديد والنقل النهري. نهر النيل من على البعد كان يبدو غاطسا في ظلال أشجار النخيل، كأنه يختبئ من شئ ما حين يمر موازيا للمدينة. تقع قريبا منه بجانب سوق المدينة المدارس الابتدائية للبنين والبنات التي سيدرس فيها معاوية وسميرة شقيقته.

سيعتاد معاوية بسرعة على الحياة في المدينة الجديدة، رغم أنها مدينة صغيرة لكن ضجيجها يساوي ضجيج ألف مدينة، خاصة أن الحي الذي يقع فيه بيت جدهم يلاصق محطة القطار الرئيسية وورش الصيانة. كان يجلس مع شقيقته في الأيام الاولى يشاهدان الاسراب الهائلة لعمال السكة الحديد يملأون الشوارع بدراجاتهم الهوائية عند نهاية دوام العمل. كان

معجبا بالدراجة الهوائية حتى أنه حاول صناعة واحدة، أستخدم مخلفات بعض الحديد التي يجمعها من ورش الحديد في السوق، مع بقايا مواسير صغيرة كانت جزءا من مقعد حديدي مكسو بحبل من البلاستيك الأبيض الذي جفّ وأصبح لونه أصفرا وإلتصق بالمواسير بمرور الزمن، كما عثر على إطارات دراجة قديمة وجنزير مع الترس والبدّالات. لكن الدراجة التي إستخدم في تثبيت أجزائها بعض الاسلاك والخيوط المستخدمة في حياكة الأحذية، كانت تتحرك بصعوبة وكانت تبدو مثل شخص مشلول الأطراف يتحرك بصعوبة دون أن يحتفظ بتوازن جسده، وتحتاج لمن يدفعها من الخلف لتسير بصعوبة في الأزقة غير الممهدة، وبسبب ثقل هيكلها كانت إطاراتها تغرق بسرعة في الرمال، محاولته لم تكن كلها تضييعا للوقت فقد تعلم أشياء كثيرة، كما أن جده وعده بأن يشتري له دراجة جديدة أذا أحرز نتيجة جيدة في إمتحان نهاية العام الدراسي.

مثلما يتسرب ضوء الصباح ببطء وهدوء ويذوب في فراغ الأفنية ليصنع النهار، مثلما تمتص أوراق الأشجار الخضراء الضوء لتصنع الحياة، دون أن يكون شئ من ذلك مرئيا. كان الحب ينمو في قلب معاوية مثل نبتة صبّار في الصحراء، تختزن الحياة ضمن أوراقها البلاستيكية، بينما لا ينم مظهرها سوى عن مشهد الموت. وحتى حين تسمح للحياة أن تبرز من فوق سطح موتها في شكل وردة صغيرة بدون عبير، كانت تحيطها بالأشواك. كان الحب ينمو في قلب معاوية، وردة زرقاء تكتسي بشرنقة من أشواك خوفه. تختبئ الوردة تحت سطح أشواقه، تبرز أحيانا بحذر بحثا عن نقطة ضوء في عتمة أشواق الانتظار.

يذهب لزيارة خالته وأسرتها أحيانا، تحضر خالته وأبنائها دائما يوم الجمعة الى بيت الجد، تتولى خالته إعداد الأكل في هذا اليوم، قبل موعد الغداء يحضر زوج خالته، يلعب مع جده الورق، حظه دائما ممتاز في اللعب، يداعبه الجد قائلا: إما أنك تسرق الورق أو تسرق الديزل! يشير من طرف خفي للشائعة التي كانت تحوم حول زوج إبنته الذي يتولى رئاسة اللجنة التي تقوم بتوزيع الديزل للمزارعين، بأنه يقوم ببيع الديزل في السوق السوداء حين يكون هناك نقص في كميات الديزل التي يتم توزيعها للموسم الزراعي.

في حضور سميرة إبنة خالته ينتابه حزن غريب، يحاول طرده من ذاكرته، يذكر أنه كان يشعر بشئ مشابه حين يرى زميل له في المدرسة، كان كلما إلتقاه يشعر بحزن غريب يجتاح دواخله، بعد أشهر قليلة وفي بداية العام الدراسي الجديد لم يجد ذلك التلميذ في المدرسة، حين سأل عنه عرف بالخبر الصاعق: مات التلميذ غرقا إثناء العطلة الصيفية . حين ينظر في عيني سميرة الأخرى، يختبر الشعور نفسه وإن بكثافة أكبر، حزن يخرج من

عينيها ، لا يشعر به في دواخله كما كان يحدث مع زميله الميت، بل يرى وميضه في قاع عيونه، كأنه يمسك بمرآة يرى فيها قاع دواخله، يشعر بجانبها كأنه يريد أن يقفز خارج جسده، لينقذ نفسه من نار تشتعل في أعماق دواخله. يحاول أن يطفئ نار الحزن التي تنتقل الى عينيه من عينيها، بالنظر في الفراغ من خلفها، يصبح وجهها غائما حين تظهر تفاصيل الفناء من خلفها، القفص الذي تحتفظ فيه خالته بدواجنها، وورود صباح الخير التي تزرعها سميرة في علب الحلوى القديمة، يبعد عينيه عن عينيها ويحكي لها عن تجارب عمله في ورش السكة الحديد والنشاطات التي يشارك فيها أحيانا مثل فرقة المسرح المتجول. كان يحب المسرح، وفي المدرسة كان رئيسا لجمعية المسرح التي تنظم عروض مسرحية قصيرة في الجمعيات الأدبية وفي حفلات نهاية العام الدراسي. شارك مع زملائه في السكة الحديد في أداء مسرحية قصيرة، أدى فيها الدور الذي سيقوده الى حتفه حين يقرر تمثيله في الواقع: دور ضابط جيش.

كانت مسرحية ساخرة تصوّر قائد انقلابات عسكرية فاشلة يفشل إنقلابه كل مرة بسبب إهماله، مرة لأنه نسي البيان الاول في البيت، ومرة لأنه أخلد للنوم ونسي ساعة الصفر، ومرة لأنه نسي كلمة المرور الليلية وحين يطلق الحراس النار عليه يلوذ بالفرار، ثم يعود بعد قليل ليجرب كلمة سر أخرى، قبل أن يولي الأدبار حين ينهال الرصاص فوقه مثل المطر. تركت الفكرة الساخرة في وجدانه اثرا عميقا، بدأت من التعاطف مع الشخصية التي تلبّسته أوهامها الانقلابية، وحبها للخمور حتى أنه حين ينجح في إحتلال الاذاعة وتأمين القصر الجمهوري يسقط من فرط ما شرب أمام الميكرفون في اللحظة التي كان على وشك فيها أن يلقي بيانه الأول، وفي المرة الأخيرة كان متعجلا حين حانت ساعة الصفر فإرتدى ملابسه بسرعة حيث كان يقضي المساء مع إحدى العاهرات ليبعد عن نفسه شبهة تدبير إنقلاب عسكري وليضلّل رجال المخابرات الجادين في أثره. لكنه بدلا من أن يشرب قليلا من الخمر ويكتفى من الحب حسب التعليمات، بقصيدة حب كان يحفظها عن ظهر قلب، يصف فيها محاسن العاهرة ويعدها بلقاء عاطفي قريب بعد أن يصبح رئيسا مدى الحياة، عاهلا للمطر والزلازل وكل مصائب الكون الأخرى. وأنها ستكون السيدة الأولى، لكنه بدلا من حب شفهي، إستسلم لإغواء ممارسة حقيقية للحب، وجد الممارسة الشفهية مملة وإغراء جنة الحب أفضل من إغراء جنة السلطة غير المؤكدة، وحين نظر الى ساعة الجدار أثناء حمى إحتراق قاع الجسد، وجد أنه تبقت فقط خمس دقائق على ساعة الصفر، نزع جسده بصعوبة من الجسد الآخر، وحشر نفسه في أول قطعة ملابس عثر عليها وإختطف أول ورقة بيان وجدها أمامه. وحين جلس بعد قليل أمام كاميرا التلفزيون وبدأ إذاعة بيانه الأول

إعتقد معظم المشاهدون أنهم يشاهدون عرضا هزليا، فقد كان قائد الانقلاب يجلس بملابس عاهرة محلية ويقرأ بيانا شعريا يمجّد عذرية الحب، ويعيّن فيه عاهرة طيبة القلب، تتعامل مع عشاقها بالتقسيط المريح، يعينها سيدة أولى، وعاهلة للصحراء، بسبب تفانيها في الحب!

طوال أشهر إنشغل معاوية بكتابة رسالته الأولى التي لن يتوقع أنها ستكون أيضا الأخيرة، في البداية كان يشعر بخوف غامض من مجرد المحاولة. يجرّب الفكرة في رأسه، يعيد قراءة عباراتها بصوت مرتفع، يتوقع أن يكون كافيا فقط لتسمعه سميرة، ثم يتخيل رد فعلها على كل عبارة. هذه الجملة لن تصلح لسميرة، يقول في نفسه، ربما تصلح مع شخص آخر، لكنها قطعا ليست مناسبة حين يتعلق الأمر بسميرة، بفتاة يبدا الصباح من عينيها، ليست مناسبة لفتاة تحب الشعر وتحرّر وحدها جريدة حائطية في المدرسة. ذات مرة حين تسلّل الى مدرسة البنات في مناسبة وجود حفل غنائي مفتوح في المدرسة. كان أهم هدف بالنسبة له دفع بسببه ثمن التذكرة التي وفّرها من عمله في السكة الحديد في عطلة الصيف. أن يرى الجريدة التي تصدرها سميرة والتي حدثته عنها كثيرا. وجد حوارا مع إحدى المدرسات ومقالات صغيرة مكتوبة بإسلوب بسيط تدور كلها حول إرشادات للإستفادة من أوقات الفراغ، كيفية عمل لوحات من علب السجائر الفارغة أو من البوص، المجلات المناسبة لتقرأها الفتيات الصغيرات. كيفية مساعدة الامهات في رتق الملابس القديمة أو حياكة اغطية للرأس من الصوف . وصفات أكل بسيطة ومناسبة لشهر رمضان ووصفة لعمل الكعك لعيد الفطر. وجد قصيدة شعر، كلماتها بسيطة، لكنه شعر بها تنفذ الى قلبه. لا يدري لم شعر رغم خبرته القليلة أن القصيدة كتبت فقط من أجله! يستطيع تتبع تفاصيل وجهه المخفية في عبق نوار أشجار الليمون، في خيوط ضوء مغيب شمس تغطس في النهر وتشرق في اليوم التالي من خلف الجبل. كأنها تغتسل من رهق نهار الصحراء الطويل، قبل أن تعود بكامل بهائها من خلف الجبل. حين قرأ القصيدة وجد أنه حفظها من قراءة واحدة. لا يلاحظ أنه لم يكن يقرأها بل كان يعيد إكتشاف تفاصيل صور محفوظة في ذاكرته.

يحاول أثناء التجربة الشفهية لكتابة رسالته، أن يتذكر بعض المقاطع التي يسمعها من بعض العمال، ذات مرة ضبط ثلاثة من أصدقائه العمال يتحدثون عن الفتيات، كانوا يجلسون على حصير من السعف ويشربون الشاي داخل مبنى الورشة الضخم المشيد من ألواح الزنك وأعواد الخشب. بعد قليل قام إثنان من الزملاء ليواصلا عملهما وبقي واحد، كان معاوية يرتاح لرفقته وللحديث معه، سأله معاوية : هل جرّبت الحب؟

قال مختار مازحا: الحب مثل أشجار الموز يحتاج كثيرا من الماء، لذلك لا ينمو في هذه الصحراء!

اشار مختار بيده الطويلة الى الحي غرب محطة القطار وقال وفي عيونه الصغيرة التي تبدو مثل ثقوب في وجهه النحيل، يتراقص شبح إبتسامة ماكرة: يوجد حب للبيع هناك، لا ينمو الحب في هذه الصحراء الا فقط في الشريط الملاصق لنهر النيل، مثله مثل أشجار النخيل!

لسوء الحظ لا تسكن في ذلك الحي سوى العاهرات! توجد فتيات جميلات، هناك خمور جيدة أيضا، نحن نسمي ذلك المكان الرائع: النهر، حين تكون غارقا في الحب يمكنك أن تمد يدك من النافذة وتداعب ماء النهر! تشعر كأنك تضاجع النهر! مثلما يصب النهر في البحر، تصب أنت في النهر! يسحبك النهر من خلفه، ويفرغك من روحك ويلقيك مثل جثة هامدة. هل تذهب معي الى النهر يوم الخميس؟ بدت له فكرة الذهاب الى النهر تسليما بضياع حلم حياته، معنى حياته: سميرة. أنه سيخون قلبه قبل أن يخون سميرة إن اقدم على الذهاب الى النهر، لم يكن راغبا أن يبدأ مشروع حبه بالخيانة، رغم أن فكرة مداعبة ماء النهر من النافذة أثناء ممارسة الحب بدت له مغامرة عاطفية مائية تستحق مجرد التجربة! ظن العامل أنه خائف لأنه لم يسبق له تجربة الحب من قبل. حاول أن يشجعه على مرافقته.

شرح له الأمر بتبسيط ميكانيكي مخل: كل شئ يتم آليا، حين تفرغ من الحب تشعر مثل ماكينة تم تغيير زيتها التالف بزيت جديد، تعمل الماكينة بإرتياح ويكون صوت تروسها ناعما وهادئا. أثناء الحب يقوم جسدك بكل شئ كأنه مدرّب على ذلك منذ الأزل! يختفي الخوف والخجل منذ اللحظة الأولى مجرد أن يدخل جسدك الحرب. حين تدخل الحرب تشعر ان كنت قليل الخبرة بالخوف لكن حين يرتفع صوت الرصاص تصبح جزءا من المعركة، أية دم مراق هو دمك، أية رصاصة تقتل إنسانا تنطلق أيضا من سلاحك حتى لو كان سلاحك بدون ذخيرة أو مشحونا بطلقات مطاطية. لا تشعر بشئ، يقودك سلاحك دون أن تبذل أية جهد، مثل كلب يقود شخصا أعمى، يحدث الشئ نفسه في معركة الحب، يقودك سلاحك وأنت من خلفه مثل المنوّم مغناطيسيا! حتى حين تصدر عن جسدك تأوهات حين يغلى دمك في مرجل الحب، فإنك تنظر حواليك مندهشا تبحث عن مصدر أصوات التأوهات التي تصدر منك!

تبدو له الفكرة أكثر إثارة، لكنه يصر على وضع إغراء الجسد الذي يتأوه لوحده، ضمن شرعية حب عذري، يحاول تحاشي العامل الذي يواظب على إغوائه بمفاتن حب الدفع المقدم، يسأله كل اسبوع بنفس عبارته: هل ستذهب معي الى النهر يوم الخميس؟

حين عبرنا حديقة القصر وجدنا كل شئ مدمّرا، الشركة التي كانت تستأجر الحديقة غادرت المكان منذ سنوات من قبل ظهور ميليشيات الجنجويد. قبل رحيلهم قاموا بتفكيك آلياتهم الضخمة وشحنها خارج الوطن، كما قاموا بتفكيك الأسوارالحديدية العالية التي شيدوها حول الحديقة ونزعوا من أرض الحديقة كل أشجار التمر الهندي والليمون والبرتقال التي غرسوها عند حضورهم وشحنوها في سيارات النقل الضخمة. وسحبوا حرّاس حدودهم وغادروا أرض الوطن، سحبوا حتى قضبان السكة الحديد التي قاموا بتركيبها بجانب الحديقة لشحن المواد الخام التي عثروا عليها.

القصر نفسه في الداخل كان مهجورا، كان عاريا تماما من أية أثاث أو سجّاد، السجاد الايراني الفخم وأثاث خشب المهوقني والتيك قامت قوات الجنجويد بنهبه وتحميله في قطار ضخم قاموا بمد قضيب السكة الحديد الى حديقة القصر له خصيصا. الارض كانت مغطاة بالتراب والأعشاب وروث الأطفال الجاف، من شقوق الجدران برزت وردات نبات اللبلاب، تبحث عن الضوء في فوضى قاعة الاجتماعات الضخمة التي تحولت الى اسطبل للخيول، نفس القاعة الضخمة التي شهدت اجتماعات السير روبرت هاو بزعماء العشائر. القصر الاستعماري الفخم الذي شهد أزمنة الصخب كلها كان محطما بسبب سوء استخدام ميلشيات الجنجويد التي إحتلت المكان، وحولته الى شئ أشبه بالاسطبل. لم يبق سوى الصور المعلّقة على الجدران، تغيرت ألوانها بسبب الزمن، والجفاف الذي ضرب الوطن، كانت هناك صورة

ضخمة في البهو الرئيسي: حفل إستقبال في حديقة القصر، وفي خلفية الصورة سباق للزوارق في نهر النيل! بقيت تلك الصورة كدليل وحيد يثبت أن النهر كان يعبر أمام حديقة القصر في العصر الأول للجفاف، حين كان صخب مهرجانات الفرح يطغى حتى على أصوات مدافع الدبابات التي تتقاطر في ساعات الاصائل للقضاء على آخر المحاولات الانقلابية.

رأينا بقايا أحواض الزهور في مدخل الحديقة في المكان الذي كانت تتم فيه إحتفالات تقديم أوراق إعتماد السفراء في الأيام الخوالي. إختفت شجيرات الورد الانجليزي وأشجار الجهنمية وورد الحمير، وتحول المكان الى غابة من شجيرات الصبّار الصحراوية. رأينا من على البعد ثلاثة من عسكر الجنجويد يتجولون دون هدف في المكان. يبدو أنهم عادوا الى القصر بحثا عن شئ ما ربما ضاع منهم في فوضى الهروب الكبير قبل أسابيع. رأينا جملا يرعى من على البعد بقية نجيلة القصر التي احترقت بسبب العطش والشمس الحارقة. يا للمهزلة! جمل في القصر الجمهوري! قال أحد مرافقينا لابد أن أحد عسكر الجنجويد أحضره ربما لبيعه أو ذبحه في مناسبة ما، لأن عسكر الجنجويد كلهم يستخدمون الخيول أو عربات الدفع الرباعي لاندكروزر في غاراتهم. زالت دهشتنا من رؤية الجمل بسرعة حين إكتشفنا خلف أجمة من أشجار التمر الهندي إسطبلا صغيرا به ثلاثة خيول مريضة وحمار أبيض ضخم! يا للكارثة! حمار في القصر الجمهوري! ضحك أحد الجنود وقال: يبدو أن قائد الجنجويد وجده في إحدى غزواته حول العاصمة، وأثار فيه مرأى الحمار الأبيض الجميل أشواق سارق الحمير المتخفي في جلباب جنجويد برتبة جنرال. رأينا أيضا عددا من الأطفال يتسلقون بقايا جذوع أشجار المانجو الجافة التي استخدمت كمرابط للخيول.

تساءل أحد الرجال: هل ترك الجنجويد أطفالهم هنا؟

أوضح جندي آخر: كان الجنجويد يحتفظون ببعض النساء اللائي يقعن في الأسر اثناء الغارات على القرى النائية، بعض هؤلاء النسوة وضعن أطفالا، بعضهم يعيشون مع أبائهم، أما الأطفال الذين لا يعرف أحد آبائهم فيتركون في العادة لمصيرهم، حيث ينضمون لجيش الأطفال المشردين، الذين تلقي بهم الى مزابل الشوارع علاقات الحب غير الشرعية والفقر، أضافة للنازحين من حروب الوطن المختلفة الذين تعج بهم شوارع الوطن.

رأينا أمام الحديقة في مجرى النهر الجاف باخرة مهجورة، أبوابها وشبابيكها كلها مغطاة بشباك العنكبوت. سمعنا من داخلها ما يشبه صوت غناء حزين يصاحبه عزف حزين على آلة الكمان، وصوت صهيل خيول، وتأوهات حب شهواني نهاري. إعتقد بعضنا أنها ربما

كانت من بقايا مخلفات حب قديم نبت أيام كان الشارع المطل على النهر القديم يعج بالعشاق في ساعات الأصائل. أكتشفنا وجود قضيب قطار يعبر الحقيبة ويمر من أمام الباخرة المتوقفة. كان ذلك يعزز من صحة الشائعة التي أكدت أن قائد مجموعة الجنجويد وبعد هروب منسوبي الشركة الوطنية التي كانت تدير الوطن، أصبح يستخدم قطارا في تنقلاته وفي النهب الذي عادت مجموعته للقيام به بعد أن توقفت الشركة الوطنية عن دفع أجورهم.

استخدمنا سونكي البنادق لتمزيق شباك العنكبوت. في الداخل كان الجو لطيفا والهواء أكثر نقاء وجدنا بهو الباخرة أشبه بغرفة نوم ضخمة كانت مفروشة بأثاث إيطالي فخم، قال أحد الجنود: لابد أن قائد الجنجويد كان يستخدم المكان كغرفة نوم للنساء اللائي يقعن في أسر قواته. بحثنا دون جدوى عن مصدر الصوت الذي سمعناه في الخارج. وجدنا ملابس نسائية وآثار دماء جافة على الأرض وفوق الشراشف. وبقايا براز جاف على الأرضية الخشبية. وجدنا على طاولة تتوسط ثلاثة مقاعد يشبه الواحد منها سرج الجمل، ومكسية بجلد شبيه بجلد الجمال، في البهو، زجاجة ويسكي وكأس شراب لم يمس. وصحن ملئ بحبات الفول السوداني التي تغطت بالغبار وخيوط الطحالب الخضراء. وجدنا حذاء نسائيا جديدا وحذاء رجاليا مصنوع محليا من جلد نمر من مقاس ضخم، يصلح لقدم فيل، قال أحد الجنود حين رآه: لا بد أنهم استخدموا نمرا كاملا لصناعته! الحذاء كان يبدو مهترئا من فرط الاستعمال، لابد أن صاحبه كان يحب المشي كثيرا. قال جندي آخر مازحا: لقد مشى هذا الحذاء على الأرض، أكثر من ما مشى النمر حين كان حيا!

فكرنا أن الموسيقى قد تكون صدرت عن مذياع أو جهاز تسجيل لكننا لم نعثر سوى على جهاز أم بي ثري صغير الحجم مع سماعات للأذنين يبدو أن قائد الجنجويد أو إحدى النساء التي عاشت في البيت كانت تفضل الاستماع وحدها للموسيقى.

قال أحد الجنود: يقول السكان الذين كانوا يسكنون في الأحياء القريبة من القصر قبل أن يجري إرغامهم على بيع تلك الأراضي للشركة الوطنية والرحيل للعيش في مناطق أخرى، أن حديقة القصر يسكنها الجان، نفس أسر الجان التي كانت تستوطن في النهر، وحين إختفى النهر وجد الجان نفسه مكشوفا دون غطاء، يبدو أن الجان الذي إعتاد على العيش في قاع النهر لم يطق العيش في عراء يعج بالفضوليين والكلاب الضالة وعسكر الجنجويد، فانتقل للعيش في الباخرة التي كانت تعبر النهر أمام القصر وهي تحمل شحنة من الموز والموالح، حين إختفى النهر فجأة فبقيت في مكانها. ربما تزوج قائد الجنجويد إمرأة من جان النهر، فالرجل كان يحب النساء ولم يكن يهتم إن كانت النساء الجميلات اللائي

يعاشرهن من الإنس أم من الجان. سمعت بعض حرّاس القصر يقولون أن الباخرة كانت تشهد مساء حفلات صاخبة تمتد حتى الفجر، وفي بعض الأحيان كانت تضئ أنوارها وتبحر فوق أمواج الليل ولا تعود إلى مكانها إلا مع إنبلاج أول خيوط ضوء الصباح.

بدلا من معركة حب حقيقية، في أيام خميس النهر كما نصحه أصدقائه، تفرّغ معاوية للمعركة التي قرّر خوضها حتى آخر نفس في حياته. كتب رسالته كلمة كلمة، كل كلمة يكتبها كان يجربّها في خياله عدة مرات أمام طيف سميرة. يلغي كل كلمة تقول أنها لا تتناسب معها. لا يلاحظ أنه كان يعيد إنتاج نفس قصيدة سميرة التي حفظها يوم أن قرأها في جريدتها الحائطية. كأنه كان يشعر في قرارة نفسه أن شيئا ما لا يستطيع فهمه أبدا سيمنع سميرة من الرد على رسالته، كأنه حين يكتب بنفس إيقاع قصيدتها، بنفس موسيقى كلماتها الداخلية، مستخدما نفس الصور التي شحنتها داخل كلمات قصيدتها، و حين يستخدم نفس مقياس أشواقها لصورته التي تدسها بين خيوط الضوء ونوار شجر الليمون، سيجعل الصور في متناول توقعاتها. نفس مقياس الأشواق الذي تستخدمه يوميا لقياس نبض خطواته القادمة في ضوء القمر.كأنه يسعى لحصارها داخل نفس الصور التي رسمتها في ذاكرتها للرجل الذي ظلت تحلم بنبض خطواته، حتى لا يترك لها ثغرة تهرب بها من حبه.

في البداية فكر أن يرسل الرسالة عن طريق البريد، لكنه خشي أن تتسلم خالته أو زوجها او شخص آخر الرسالة، إن وصل ساعي البريد في وقت لا تكون سميرة موجودة فيه في البيت. رغم أن سميرة في الغالب تكون هي الوحيدة الموجودة في البيت أثناء النهار في فترة العطلة الصيفية، تذهب والدتها دائما الى السوق أو لزيارة جيرانها أو زيارة قريب أو جار مريض في المستشفى القريبة من السوق. ووالدها يكون في عمله وشقيقها الصغير

يلعب دائما في الشوارع، أو يسبح مع بعض أقرانه في نهر النيل. حين تعد والدتها طعام الغداء تذهب سميرة يوميا للبحث عن شقيقها بجانب نهر النيل.

في النهاية بعد تردد طويل قرّر أن يسلّم سميرة الرسالة بنفسه مجرد أن يفرغ من كتابتها. كان يشعر أن رد فعلها سيكون أفضل إن جاءتها الرسالة عن طريق البريد ودون أن يضع أسمه عليها، كأن إسمه سيمثل حاجزا ما لن تستطيع سميرة تجاوزه. يرى سميرة تعيش في حبه، مثل شخص منوّم مغناطيسيا، كأنه قدر عادي وجوده غير محسوس. أية تغيير أو إشارة غير متوقعة في مسيرة هذا الحب، تنبه الى وجوده، قد تؤدي الى أن يأخذ كل شئ فيه مسارا عكسيا.

في آخر يوم في عطلة الصيف وآخر يوم عمل له في ورشة السكة الحديد، إرتدى معاوية ملابس نظيفة وإتجه الى بيت خالته. من حسن الحظ وجد سميرة وحدها في البيت، كانت تجلس وبجانبها كتاب، رجّح معاوية أن يكون كتابها ديوان شعرلمعرفته بحبها لقراءة الشعر. كانت تحمل بين يديها قميصا تقوم بتثبيت أزراره بإبرة وخيط، وبجانبها كومة ملابس أخرى، خمّن معاوية أنها تقوم برتق ملابس المدرسة لشقيقها إستعدادا لبداية العام الدراسي الجديد. بدت له أجمل مخلوق في العالم. ترتدي فستانا أزرقا واسعا من قماش الشيت، به وردات كبيرة صفراء، يتلاعب عنقها الجميل بضفائرها الطويلة المنسدلة داخل فتحة فستانها. جسدها الجميل النحيل نفسه كان يبدو ضائعا داخل الفستان الواسع. سأل عن شقيقها. ضحكت وقالت لا مكان لديه يذهب اليه كل يوم سوى نهر النيل. يصر على الذهاب الى هناك رغم أن والدها حذره عدة مرّات من العوم هذه الأيام في نهر النيل لأن البعض يقولون أنهم شاهدوا تمساحا ضخما يعبر في المنطقة المواجهة للمدينة. شقيقها يرد على والده أن المنطقة التي يسبح فيها مع رفاقه تعج بالصيادين، صيادي الأسماك وصيادي الطيور، ولديهم بنادق جاهزة. وكلهم خبراء يستطيعون التعرف على رائحة التمساح على بعد عدة أميال ويكمنون لإصطياده. وقد حكى لهم أنه شاهد يوما تمساحا صغيرا وقد قام الصياد بتقطيع لحمه وعرضه للبيع! رغم أنه لا يفهم كيف يأكل الناس لحم هذا التمساح الذي يأكل البشر!

أعدت له كوب شاي، ساعدتها قصة التمساح على مداراة الارتباك الذي شعرت به حين إكتشفت أنها فوجئت بزيارته رغم أنها بقيت طوال أشهر عديدة تعد نفسها لهذه الزيارة. إختبرت شعورا لم تفهم سببه أبدا، أنها كانت في الواقع في إنتظار شخص آخر، أنها فقط إستخدمت لذلك الآخر صورة وجه إبن خالتها، الوجه الطفولي الوسيم. لكنها لاتعرف حتى

تفاصيل وجه ذلك الآخر الذي تفني وقتها في أنتظاره، وتتبع نبض خطواته على ضوء القمر. وأن الجالس أمامها ليس الشخص الذي ظلت تنتظره منذ سنوات منذ أن وعي قلبها على قدر حبه. شعرت بالرعب من فكرة أنها تفني عمرها في إنتظار إنسان لا وجود له، تقوم ذاكرتها تلقائيا بوضع صور له من الصور المحفوظة في ذاكرتها، فقط كرد فعل دفاعي أمام شعورها أحيانا بالوحدة أو أن العالم يهجرها، يمضي للأمام دون أن يعيرها ولا حتى وقفة على أطلال أوهامها. يعبر من فوق أحلامها دون هوادة.

شرب كوب الشاي فيما جلست هي بجانبه وسألته عن العمل في مصلحة السكة الحديد، وعن آخر مسرحية شارك في أدائها. عرضت عليه أن تعطيه مسرحية شعرية تقوم بكتابتها، بشرط أن تشارك فتيات حقيقيات في التمثيل معهم مثل المسرحيات التي شاهدوها في مسرح المدينة حين قدمت فرقة مسرحية قبل أشهر من العاصمة. تريد فتيات حقيقيات وليس رجالا يرتدون ملابس النساء، ويغيّرون أصواتهم بطريقة مضحكة لتصبح رفيعة وتحاكي أصوات النساء. قال معاوية إنه سيناقش ذلك في المدرسة،. وأن من الافضل الآن أن يقوم بتمثيلها مع فريق المسرح في المدرسة. لأنه سيتوقف على كل حال عن العمل في مصلحة السكة الحديد حتى نهاية العام الدراسي. ثم سألها ضاحكا: وهل سترغبين أيضا في المشاركة في التمثيل؟ ردت بسرعة وحماسة: بالطبع أرغب في ذلك، شاركت في مسرح المدرسة، تتوقف قليلا لتلتقط أنفاسها بأنفها الجميل،الذي تعلوه حمرة خفيفة بسبب إصابتها بالحساسية، لتلتقط مزيدا من الضوء بعينيها الواسعتين، تسحب فائض الضوء كله من حولها وتحوله الى طاقة حزن، الى مرآة يرى فيها الورود الاستوائية الغريبة لعوالم مجهولة، غير متاحة في ذاكرته. تشرح تجربتها مع مسرح المدرسة: قمنا بعمل تمثيليات قصيرة جدا، لكنها تشعرك برد فعل من يشاهدك على الفور، تشعر أن المشاهد نفسه يؤدي معك دورا، هو جزء من المشهد وليس فقط يتلقى ما تقدمه، والنتيجة يساعدك ذلك الشعور على إحراز نوع من الالفة مع مسرحك وجمهورك. فإنت تشارك في صناعة شئ موازي لنفس حياتك اليومية، أنت جزء من مؤامرة يشارك فيها كل شئ من حولك، وبالتالي لا تتكلف الأداء!

أعجبت الفكرة معاوية. لطالما شعر أنه يؤدي دورا حقيقيا، وحين كان بعض زملائه في العمل ينادونه ساخرين من دوره في المسرحية: كيف حالك أيها الكولونيل؟ كان هو يشعر بالسعادة، يشعر كأن الدور الذي يقوم بتمثيله يمتد الى الواقع، لا ينتهي المكان عند إسدال الستار في المسرح، لكنه يبقى يتناسل وينسج خيوط وجوده في كل زمان ومكان.

شرب كوب الشاي بسرعة، ثم شرح لها أنه سيعود الى الورشة لأداء بعض الاشياء الصغيرة وجمع ملابسه وبقية أشيائه هناك، لأن اليوم سيكون آخر يوم عمل له هناك. في الباب سلّمها الرسالة. شعر بها ترددت قليلا وهي تمد يدها لتتسلم رسالته.

لم ينظر اليها في وجهها قبل أن يغلق الباب خلفه، لم يقل لها حتى وداعا. حين تذكر وهو في الخارج أنه لم يقل لها وداعا. شعر للمرة الاولى منذ صباح ذلك اليوم انه فعل شيئا صوابا. كأنه يريد إعطائها مسوغا للرفض، لأنها هي نفسها لن تعرف السبب الذي جعلها تكتب له رسالة من سطر واحد تعتذر فيها عن قبول حبه، طوال ثلاثة أعوام ظلت تنتظر رسالته، وحين وجدتها أخيرا بين يديها لم تفهم لم ظلت تنتظر تلك الرسالة. أصابتها خيبة أمل لم تجد لها تفسيرا منذ لحظة حضر ليسلمها الرسالة، كانت تعرف أنه قادم منذ أشهر طويلة. حين تجلس في أمسيات قمر الصحراء. حين يطبق السكون على العالم، قبل أن تسمع صفارة القطار تمزق الصمت الذي تغرق فيه المدينة بعد صلاة العشاء. قبل أن يعود الهدوء رويدا رويدا الى المدينة ، تتعالى أصوات المسافرين والمودعين والباعة، ويهدر القطار في الرحلة الطويلة في الصحراء، يزعق حزينا كأنه يعرف الرحلة الطويلة القاسية التي تنتظره. حين يخرج من المدينة يبدأ في صعود الجبل، تتراخى سرعته ويبدو كأنه يقاوم حتى لا يغادر المدينة التي يحب في رحلته الأزلية الى المدن البعيدة المتناثرة بحذاء الصحراء حتى تخوم السافنا. يبدو وكأنه يصعد الجبل مغادرا المدينة مثل حمار يتم إدخاله الى المركب الشراعي بالقوة، حين تخفت رائحة القطار ويختفي صوته في الصحراء، كانت تتعالى من حولها دقّات أخرى. دقات نبض خطواته القادمة، الخطوات التي ظلت في إنتظارها منذ سنوات طويلة، يبدو لها ذلك الانتظار طبيعيا، مثله مثل شروق الشمس أو غروبها، لا تستطيع حتى أن تحدد له بداية، تشعر بنبض تلك الخطوات منذ ان وعت على الدنيا.

تبق مستيقظة كل مساء في فراشها في الفناء في إنتظار القمر، حتى حين يتأخر بزوغه، حتى تستمع الى صوت الخطوات التي تنبض بإتجاه قلبها. تحاول عن طريق محاولة تحديد قوة نبض الخطوات تحديد الزمن المتبقي قبل أن تراه أمامها يفتح قلبه على مصراعيه. قبل أن تراه يزيح ضوء القمر الملئ بنبض خطواته من وجهها ويضع مكانه وجه قلبه الذي يستخدم القمر ساعيا لبريد اشواقه. أشواقه التائهة في هذه المدينة الغارقة في ضجيج يبدو في ساعات القليلولة كأنه ينزع الزمن من أحشاء هذه المدينة، ببيوتها النوبية والحي القديم الذي كان يقيم فيه المفتش الانجليزي في العهد الكولونيالي، بشرفاته ذات الاقواس

الرومانية وأشجار الورد في حدائقه، ويلقيه في الصحراء. فيتجمد كل شئ في مكانه، لحين بزوغ القمر، فتدب الحياة في خطواته، وهي تدب في الفراغ بإتجاه قلبها.

من جانبه لم يحاول معاوية ولا حتى فهم اسباب صدها له، ظل في حالة عدم توازن طوال أشهر، في الأيام الاولى إنقطع عن زيارة بيت خالته، لكن خالته جاءت الى البيت وسألته لماذا إنقطع عن زيارتهم. وجد جده له العذر حين قال: معاوية سيكون مشغولا هذا العام حتى يؤدي إمتحانه النهائي.

عاد لزيارة بيت خالتهم، بعكس ما كان يخشاه. لم يشعر بحرج حين إلتقى سميرة، جلس بجانبها يشرب الشاي وكأن شيئا لم يحدث. كأن الزمن عاد فجأة الى نفس اللحظة قبل أن يقوم بتسليمها رسالته. كأن جسور حبهما ستبقى بشرط ألا تكون معلنة. بشرط أن يبق كل شئ عاديا، بشرط أن تحافظ الأشياء من حولهما على نفس إيقاعها العادي. بشرط أن تستمر دورة المواسم ويفيض النهر كل عام في موعده. ويزرع القمح في نوفمبر وتصل الطيور المهاجرة من اقصى العالم مع بداية الشتاء. بشرط أن يظل هذا الحب مجرد فكرة، مجرد بذرة الى الأبد! محصول ذرة مدفون في مطمورة، بدون مجاعة أو مواسم جفاف، تستدعي إخراجه من المطمورة. لأن البذرة إن إنفلقت داخل الأرض وامتد ساقها بحثا عن الضوء في الخارج، ستموت مجرد أن تلامس شفاهها، شفة الضوء! يحاول فقط تحاشي النظر في عينيها حتى لا يرى حزن دواخله في مرآة عينيها.

في كل زيارة، تعاني سميرة من قلق إعادة كتابة رسالتها التي مزقتها عشرات المرّات، تعيد تمثيل مشهد تسليمه الرسالة عدة مرات، حتى تتجنب أية أخطاء بسبب حدوث أية شئ غير متوقع. حتى المقاعد تحت شجرة النيم في الخارج تعيد عدة مرات تغيير وضعها. حتى تضمن ألا تفسد الظلال مشروع تأهيل حبها! ترسل شقيقها خارج البيت بحجة أنها في إنتظار إحدى صديقاتها لعمل بروفة لمسرحية تعدانها لحفل نهاية السنة الدراسية. تعيد قياس الضوء، وسرعة الريح، ودرجة الحرارة لتجنب مشكلة تنجم عن أخطاء الطبيعة. تعيد ايضا قياس نبض خطواته حين يشرق ضوء القمر.خطواته التي لم تعد تسمعها تدب في الفراغ قادمة بإتجاهها، بل تتلمس بصعوبة الصدى الضئيل لوقعها وهي تبتعد الى الأبد! تشعر كأن هذا الصدى الضئيل الذي تسمعه لوقع خطواته المبتعدة، هو الذي يبقيه على قيد الحياة. هو الإشارة التي تنبئ لا بموت بذرة حبهما كما كانت تظن في البداية، بل بموته! ما أن تفتح له الباب حتى تتبخر كل رغباتها في إستعادة قلبه، يصيبها وميض الشوق في عينيه بصدمة أشواق مختلفة، تنطفئ النار التي تحرق قلبها، ولا تعود تشتعل الا بعد أن

يغلق باب البيت وتمضي خطواته بعيدا عنـها. تحاكي الصدى الذي يشعله ضوء القمر في ذاكرتـها، لخطواته التي تبتعد عنـها الى الأبد.

استيقظ السيد الرئيس على صوت جلبة ضاع معها صوت البلبل الأخير الذي بقي من مجموعة البلابل التي كانت تضئ فناء القصر وحديقته بغنائها، قبل أن تكتسحهم احدى العواصف المدارية التي اقتلعت ايضا أشجار اللبخ القديمة في شارع النيل وألقتها في النهر. وتعين استنفار شرطة الانقاذ النهري لانقاذ عشاق الساعة الرابعة بعد الظهر الذين كانوا يجلسون تحت اشجار اللبخ حين إكتسحتهم العاصفة. كلما مضت عمليات الانقاذ كان عدد الموتى في مجزرة الحب يرتفع، حتى وصل الى مائة عاشق. لم ينج سوى عاشق وحيد، تعلق بجذع شجرة لبخ، كان عاشقا محظوظا، أمر السيد الرئيس بمنحه وسام إبن الوطن البار، وإقامة مهرجان سنوي لتأبين ضحايا الحب يحمل إسمه. تساءل أحد المستشارين عن الانجاز الذي حققه الناجي الوحيد من مجزرة الحب ،بخلاف بقائه على قيد الحياة، ليستحق الوسام الرفيع. إستفزه السؤال فلم يكتف فقط بتكريمه لبقائه على قيد الحياة، بل أصدر قرارا بتعيينه مستشارا، توجد دائما وظيفة مستشار شاغرة حتى إن بلغ عدد مستشاريه ألف مستشار. كلما إرتفع صوت رصاص الانقلابيين في الخارج، كان يشعر بالارتياح لقراره بتعيين المستشار الجديد، كأنه تميمة ضد الموت، بصموده في مواجهة إعصار إستوائي بسلاح الحب.

وصل المستشار الجديد في اليوم التالي، وفي حفل أداء القسم، إعتقد رجال المراسم أن هناك خطأ ما، فقد جاء صبي صغير، ترافقه والدته. لا يتجاوز عمره العشرة أعوام! أدى له الحرس التحية، كان يرتدي زي الكشّافة، وربطة عنق زرقاء وينتعل حذاء رياضيا خفيفا! أخرج عود حلوى المصاصة من فمه حتى يستطيع ترديد نص القسم خلف أحد رجال المراسم. إنه المستشار الوحيد الذي بلغ الرشد أثناء شغله للوظيفة، بعد أداء القسم تناول

الافطار هو ووالدته مع السيد الرئيس، وحكى كيف نجا من الغرق في العاصفة، كان واضحا أنه متأثرُ ببعض قصص الأطفال، فقد حكى كيف أن طائر الرخ الذي حملته العاصفة هو الذي إختطفه من براثن الأمواج وحمله الى جزيرة بعيدة، وظل طوال أيام يطعمه مع صغاره، في أثناء قصته كان يحكي أيضا بعض قصص المدرسة والمقالب الصغيرة التي يدبّرها لزملائه.

خارج غرفة نومه وجد أحد رجال الشركة الوطنية، أوضح له أن هناك زوارا سيبقون لبعض الوقت في القصر لتأمين حراسته وحراسة المدينة، حيث بعض حركات التمرد تتجه نحو العاصمة. إعتقد الرئيس إنّ الحديث يدور حول فرقة تابعة للجيش، لكنه وجد في الخارج عددا مهولا من الرجال الغرباء يملأون كل مكان، نصبوا خيامهم في الحديقة وربطوا جيادهم في فروع اشجار الجهنمية وورد الحمير، كانوا مع نسائهم وأطفالهم تناثرت اسلحتهم في كل مكان، لم يستطع تبين صورة المكان جيدا بسبب دخان الشواء،ورائحة غائط الاطفال. كانوا يتغوطون في البداية تحت اشجار المانجو لكن الشركة الوطنية قامت بتركيب مراحيض متحركة في الحديقة. يمارسون الحب في كل مكان مجرد أن يرخي المساء سدوله وينام الاطفال، تصبح الحديقة مساء عبارة عن أضخم غرفة نوم في العالم. يختلط صوت أجهزة الراديو العالية التي تذيع نشرة اخبار الساعة الثامنة مساء مع أصوات الحب المعلن.المكان عبارة عن مخيم كبير يحوي مئات الخيام، لكن الخيام من قماش خفيف لا يخفي صوتا. نشرة الثامنة مساء يغلب على أخبارها في العادة إذاعة أسماء الاشخاص الذين توفوا على إمتداد الوطن في ذلك اليوم، وبسبب كثرة الكوارث الوطنية تستغرق نشرة اذاعة الموتى وقتا طويلا يمتد أحيانا لعدة ساعات. لكن تأوهات ممارسة الحب في حديقة القصر يكاد يطغى على أخبار الموت، ويشيع في الجو أملا أن كل الموتى سيمكن تعويضهم بأحياء جدد بسبب ضراوة معركة الحب الليلية لهؤلاء المحاربين.

في الصباح ينقسمون الى مجموعات، مجموعة تواصل تدريباتها ومجموعة تحرس القصر والوزارات القريبة ومجموعة تنطلق لشراء إحتياجاتهم من سوق المدينة الرئيسي. الحقيقة انهم كانوا ينهبون إحتياجاتهم، الاشياء المعروضة بمائة جنيه يشترونها بجنيه واحد. يصادرون بعض أنواع البضائع بحجة عدم مطابقتها لمواصفات وزارة الصحة! رغم أنه في الحقيقة لا توجد وزارة للصحة منذ ان إستولت الشركة الوطنية على حكم الوطن سيدي الرئيس! ينتشرون في المطاعم الشعبية يأكلون كل شئ، مثل الجراد، ملاح التقلية بالكسرة، وشواء لحم الضأن، والكمونية. حين يقدم لهم الحساب يقولون سندفع لكم نهاية الشهر حين

نتسلم مرتباتنا! لا أحد يعلم متى تحل نهاية الشهر هذه! حين يفرغون من الاكل يجلسون لشرب الشاي تحت أشجار اللبخ والمهوقني العتيقة، يضعون مدافع الكلاشينكوف بجانبهم.

ذهبوا الى الانادي وشربوا جميع الخمور المحلية والمستوردة، ناموا مع العاهرات الوطنيات، والعاهرات الأجنبيات، أظهروا حبهم للوطن من خلال تفضيل معظمهم للعاهرات المحليات على الأجنبيات. الحقيقة أن العاهرات الوطنيات كن يصبرن على عدم الدفع نقدا قبل ممارسة الحب، أما الاجنبيات فكن يشترطن الدفع مقدما، ولا يقبلن الشيكات. لتحاشي الزبائن الذين يمتنعون عن الدفع بعد الحصول على حصتهن اليومية من الحب. ولأن من المستحيل إجبار زبون مسلح ببندقية كلاشنكوف يحتفظ بها على ظهره حتى أثناء ممارسة الحب،على الدفع، قامت معظم العاهرات الأجنبيات بإستخدام بطاقات الدفع المقدم، يقوم العاشق بشحن رصيده من ماكينة صغيرة توجد في مدخل غرفة العاهرة. ثم يضع البطاقة في جهاز صغير بجانب سرير الحب. حين يفرغ الوقت المحدد مع نفاذ رصيد البطاقة، يصدر الجهاز صفيرا متقطعا، فتختفي العاهرة من تحت الزبون. الذي يكتشف اثناء جنون الحب أنه يضاجع الفراش، فيسرع عاريا ساحبا على الأرض عضوه الذكري ليعيد شحن بطاقته في الخارج! إنتهى الأمر بالجنجويد الى الاشادة بصبر العاهرات المحليات، ومثابرتهن في خدمة الزبائن بعيدا عن تعقيدات التكنولوجيا ومهزلة عدادات الحب التي تشفط المال دون رحمة. أعلن أحدهم: دائما يصفّر الجهاز معلنا إنتهاء رصيد الحب في الوقت الخطأ، وكأنني أضاجع جهاز التليفون المحمول، يجب أن أتحدث بحساب، لكن رصيد التليفون حين ينفد لا يكون مؤلما بعكس رصيد الحب! أعلن محارب آخر: سيكون الزواج أرخص من هذه الماكينة الشيطانية التي تبتلع المال، لقد إعتدنا على أن ممارسة الحب هي أرخص شئ أثناء الحرب، الآن في هذه المدينة العجيبة أصبحنا نحارب فقط لكي ندفع تكلفة ممارسة الحب!

حين يدخلون الى الانداية كانوا يأمرون فورا بإغلاق الباب ورفع العلم الأسود: الإنداية كاملة العدد. يشربون كل شئ، حتى تضطر صاحبة الانداية لإضافة الماء لشراب المريسة. لكنهم يكتشفون الغش بسرعة ولا يدفعون ثمن الشراب المغشوش! يطلبون مغنين وفرقة موسيقية، ويغرقون المكان بالنقود! تقول صاحبة الانداية حين ترى فئات العملة الكبيرة التي لم ترها أبدا من زبائنها السكارى الفقراء: هل هذه نقود حقيقية؟ وتطلب من بناتها الحذر: يقولون أن السوق ملئ بالعملة المزورة!

يضحك أحد السكارى الفقراء ويقول: اطمئني لن يجرؤ احدهم على تزوير عملتنا الوطنية ببساطة لأن طباعة ورق مزور سيكلف أكثر من قيمته حتى لو إختار المزور طباعة اعلى فئة من العملة! يوضح لها: إرتفعت أسعار الورق والحبر وتكلفة الطباعة وإنهار سعر العملة!

تفضل صاحبة الانداية أن تعود للتعامل مع زبائنها الفقراء، على الأقل هي تحفظ أوراق العملة الصغيرة التي يحملونها. يلقون بثرواتهم الصغيرة تحت رجليها ، كأس واحدة تكون كافية ليفقد زبائنها القدامى الوعي، يستغرقون بسرعة في النوم، لا تخسر كثيرا في خدمتهم حتى لو لم يدفعوا لها حسابها، يقولون دائما حين توقظهم في آخر الليل ليذهبوا الى بيوتهم: نستمتع بالنوم هنا أكثر من النوم في بيوتنا، نشعر هنا بالأمان أكثر! بينما السكارى المسلحين، يعبون الشراب دون أن تهتز رموش أعينهم، كأنهم يزدادون وعيا كلما غرقوا حتى قاع أجسادهم في الشراب. لا يرتكبون خطأ واحدا، في بعض الأحيان حين يزور بيتها سكير عابر، يفقد وعيه بعد أن يعب عدة أكواب من الشراب، حين يدفع لها يخطئ في الحساب ويدفع لها كثيرا، اذا أخطأ ودفع أقل مما شرب تنبهه صاحبة الانداية بسرعة، لكنه حين يخطئ ويعطيها أكثر لا تنبهه أبدا. اما السكارى المسلّحين فلا يدفعون قرشا واحدا أكثر . ذات مرة دفع أحدهم ثمن الشراب ونسبة لأنه لم يكن معها في تلك اللحظة نقود من فئة أقل لتدفع له بقية نقوده طلبت منه أن يعود فيما بعد. لاحظت بفرح إنه أفرط في الشراب، وخمنّت إنه سينسى بقية حسابه، أشارت لبناتها ليخلصن في خدمته بأقوى نوع موجود في تلك الليلة من الشراب، سيجعله ينسى حتى إسمه وليس فقط بقية حسابه. في نهاية السهرة لاحظت إنه استغرق في النوم، فتأكدت أنّ بقية النقود أصبحت ملكها، أيقظه رفاقه فجرا مع أول خيوط الصباح فقد بدأت وردية حراستهم للقصر الجمهوري، ما أن إستيقظ وفتح عينيه، حتى نادى على صاحبة الانداية قائلا:

اعيدي لي يا امرأة نقودي، سبعة وستون جنيها !

محبوسا في غرفته يستمع الى أصوات غنائهم، وصراخ أطفالهم أمضى السيد الرئيس ليالي الشتاء. الجو معتدل في الخارج لكنه لم يجرؤ على الذهاب وحده الى الحديقة، الا في مرة واحدة أصر فيها قائد الجنجويد على أن يرى الرئيس خيوله الأصيلة. قائد الجنجويد الذي سمع من طبيبه انه كان استاذا جامعيا في إحدى الجامعات الاقليمية. قبل أن يستقيل ويقوم بأنشاء هذه القوة، التي كانت تقوم بحفظ الأمن في القرى البعيدة المعرّضة لضربات حركات التمرد، كما أن القوة كانت تقوم بمحاربة اللصوص وقطاع الطرق وتأمين طرق القوافل

التي تنقل الملح من وادي النطرون وتنقل البضائع الى الدول المجاورة، كما تقوم بحل النزاعات القبلية التي تفاقمت بسبب الجفاف، حتى إقتحم على السيد الرئيس غرفته بعد أيام من وصولهم الى القصر، كان يبدو قد شرب كثيرا تلك الليلة، كان يبحث عن أحد رجاله. حين وجد نفسه في غرفة النوم الرئاسية، رفع الرئيس وجهه معتقدا أن حارسه يريد شيئا ما. فرأى رأسا ضخما تطل منه عينان كبيرتان تحدقان فيه، سأل الرجل السيد الرئيس : من أنت وهل لديك تصريح لدخول القصر الجمهوري؟

رفع السيد الرئيس جسده من الفراش وقال مندهشا: هل لا تزال تعمل حتى هذا الوقت المتأخر؟ أم أنك معتاد على إقتحام غرف النوم وسؤال كل نائم عن إسمه وتصريح وجوده في فراشه؟

لم يسمع الرجل كلام السيد الرئيس كله فقد أغلق الباب فجأة وعاد الى البهو، وجده الرئيس نائما على الأرض في البهو أمام غرفته فوق بركة صغيرة من البول والقئ. قام السيد الرئيس بحمله الى الحمام، لحسن الحظ أن الرجل لم يكن ضخم الجثة رغم حجم رأسه الكبير، ساعده في الحمّام على نزع ثيابه وفتح الماء فوقه. أحضر له جلبابا نظيفا ومنشفة ، ثم ذهب لتنظيف البهو، بحث عن أدوات النظافة حتى عثر عليها في المطبخ، إستخدم الممسحة وسائل الكلور لتنظيف الأرض، بعد أن أعاد الأدوات الى مكانها قام بوضع إبريق القهوة فوق الموقد بعد أن وضع مسحوق القهوة والماء. في البهو وجد قائد الجنجويد جالسا في المقعد وقد بدا عليه بعض الانتعاش وإستعاد شيئا من هيبة سلطته. شربا القهوة وأكلا بعض حبات الزلابية، قبل أن يرتفع صوت آذان الفجر في الخارج، لم يعرف السيد الرئيس إن كان الأذان يرفع في الوطن أم في وطن آخر، قال مبتسما: كانت سهرة رائعة!

قال قائد الجنجويد: شربت خمورا أجنبية، ذهبنا كعادتنا الى بيت شراب، كنا نذهب يوميا ونشرب حتى الصباح دون أن يحدث شئ. أمس مساء بعد أن شربنا كمية من الشراب المحلي الردئ، شكوت من رداءة الشراب، كأننا نشرب ماء ملوثا له طعم القئ. أحضر أحدهم زجاجة ويسكي وضعها على المنضدة أمامي وقال: هذا شراب إنجليزي! قلت ما دام شرابا انجليزيا لابد أنه أجود شراب على وجه الأرض، شربت من قبل خمرا إنجليزية لكن إتضح فيما بعد أنها مغشوشة لم تكن سوى خمر حبشية تم إفراغها في زجاجة ويسكي وإغلاقها جيدا. إعتقدت أنه سيكون نفس الشراب وضعت الزجاجة في فمي ولم أعدها الا وهي فارغة، لم أشعر بتغيير سوى أنني شعرت كأن أحدهم وضع شجرة تبلدي فوق رأسي! وفجأة وجدت نفسي هنا، يبدو أن رجالي أحضروني الى خيمتي لكنني لم أستطع النوم بعد

ذهابهم فحضرت الى هنا. يا للكارثة إنها خمر إستعمارية حقيقية، يبدو أن هؤلاء الانجليز هزمونا بواسطة هذه الخمر القوية، فلم نستطع مقاومتهم! حين نذهب لإصطياد القرود في الغابات، نضع لها مشروب المريسة في أوعية كبيرة تحت الأشجار ونختبئ، تسكر القرود وتنام في مكانها بجانب الخمر، حين تستيقظ تكون قد أصبحت ملكا لشخص ما. يفعل المستعمرون الشئ نفسه، لكنهم يرسلون لنا خمرا في زجاجات جميلة، والمشكلة نحن لا نشرب قليلا مثلهم، نريد دائما إثبات رجولتنا، كل شئ نقوم به نحوّله الى معركة أخرى، يجب أن ننتصر فيها بأي ثمن.

بدا سعيدا بالعبارة الحكيمة التي قالها، وممتنا لكوب القهوة، حتى أنه طلب من السيد الرئيس كوبا آخر، كأنه شعر أن نبع حكمته الانجليزية سيستمر في التدفق مع المزيد من أكواب القهوة، عاد السيد الرئيس الى المطبخ ليضع إبريق القهوة مرة أخرى فوق الموقد. كان يسمع صوت قائد الجنجويد الذي لم يتوقف عن الحديث وكأنه كان موجودا بجانبه، يبدو أن تأثير الخمر الانجليزية لا يزال قويا.

الأكل الذي نتناوله في هذه المدينة ليس مغذيا بالقدر الكافي، قال قائد الجنجويد بسرعة، قبل أن يعترف دون مجد: حين كنا نسرق الحمير وننهب قطعان البقر والضأن كان حالنا أفضل، كنا لا نبدأ الشراب قبل أن نذبح أضخم خروف سرقناه ونعلقه سالما بعد تنظيف بطنه، فوق النار.

قال السيد الرئيس: لكنك كما سمعت كنت مدرسا..

قاطعه قائد الجنجويد: لا توجد مدرسة في منطقتنا، ذهبت الى مدرسة مرة واحدة في حياتي. حين نهبنا مدرسة في إحدى المدن البعيدة، لم نجد شيئا يستحق النهب. لا توجد ولا حتى مقاعد للتلاميذ، يجلسون فوق حصائر السعف على الأرض. وجدنا كتبا قديمة إهترأت من فرط الاستعمال طوال سنوات، ووجدنا أقلاما من القصب. لو كنا نعلم أنها مدرسة لما أقدمنا على دخولها، كنا نظن إنها إحدى مؤسسات الحكومة التي تجبي أموال الناس، من يريد إضاعة وقته فليذهب الى مدرسة!

وهل صحيح أنكم أحرقتم القرى وهاجمتم المدنيين؟

تردد قائد الجنجويد قليلا، نظر حواليه، ثم نظر الى ساعته، ثم تأكد من وجود سلسلة مفاتيحه ومحفظته في جيبه. كأنه يخشى من شئ ما لا يستطيع تحديده، لكن الخمر الانجليزية كانت لا تزال تعطّل كوابح الحذر والخوف.

قال : أحيانا بسبب الشك في وجود متمرد واحد كنا نشعل النار في قرية كاملة، حين يخرج الناس نستطيع تمييز المتمرد بسهولة. إنها الحرب، طبيعي أن يموت بعض الابرياء، كان بإمكانهم الخروج قبل أن تصلهم نيران الحرب. بإمكانهم ايضا طرد المتمردين من قراهم. أحيانا كنا نحرق المحاصيل الزراعية أيضا، لا يمكنك ضمان أن جزءا من ثمنها لن يذهب لدعم التمرد ضد الدولة. لابد من إجتثاث التمرد من جذوره! لكننا في النهاية ننفذ التعليمات. نحن مجرد جنود!

كيف تكون مجرد جندي وأنت تعمل أو تتوقف من العمل حينما تريد؟

نحن مثل جنود الجيش ننفذ الأوامر، لكننا حين لا نقبض مرتباتنا نتوقف عن العمل. الدولة لم ترسلنا الى الكلية الحربية أو تدربنا على الحرب، تعلّمنا ذلك بأنفسنا. ورغم ذلك نعمل في خدمة الوطن، لكننا لن نستطيع خدمته حين تكون بطوننا خالية وحين لا يوجد في جيوبنا ما نشتري به خبزا أو دواء لأطفالنا.

في عطلة الصيف التالية بعد أن قام بأداء إمتحانات الشهادة الثانوية، عاد معاوية للعمل مرة أخرى في ورش السكة الحديد. في يومه الأول وجد صديقه مختار الطاهر، بعد أن صافحه وسأله عن أحواله همس مختار في أذنه: هل ستذهب معي الى النهر يوم الخميس؟

تساءل معاوية: هل لا تزال تذهب الى هناك كل خميس؟

قال مختار: وماذا نفعل، تنام هذه المدينة عند السابعة مساء ولا يبق شئ سوى النهر أو الصحراء،العمل شاق طوال الاسبوع، واذا لم يكن لديك أسرة أو اصدقاء تزورهم في هذه المدينة، فلا مفر من الذهاب الى النهر أو تصبح الحياة مملة مثل الجحيم. بعض العمال الذين جاءوا من مناطق بعيدة مثلنا إضطروا لترك العمل والعودة الى مناطقهم حين واجهتهم صعوبة الحياة وجفافها في هذه المدينة، حاولت مرة إقناع احدهم بالذهاب معي الى النهر لمكافحة الشعور بالوحدة. قال لي لو ذهبت الى النهرسأبقى هناك الى الأبد! حكي لي أن أهله شجعوه على السفر والعمل في هذه المدينة البعيدة لأنه ظل يعاقر الخمر طوال سنوات، وكان حين يجد عملا وبعض المال لا يعود الى البيت مرة أخرى، حتى ينفد آخر قرش حصل عليه. كان يذهب مباشرة من مكان عمله الى بيوت الخمر ويقضي عدة أسابيع حتى ينفد المال وتنفد كل فرصه لاستدانة الخمر، حين تنفد أوراق النقد، يبدأ في بيع أشيائه، يبيع ساعة يده وجهاز تليفونه المحمول والمعطف الذي يرتديه، ثم يبيع حذائه. كلما تدهورت أحواله المالية كان جسده العاري يظهر للعيان، حتى لا تبقى على الجسد سوى الملابس الداخلية، عندها يبدأ في الاستدانة، وحين يتجاوز حسابه الخط الأحمر في جدار بيت الشراب، تقوم صاحبة البيت بطرده الى الخارج، حين يستعيد الوعي إجباريا، بدون حذاء و شبه عار من الملابس، يتذكر أسرته ويبدأ في البحث عنهم.

حين عاد معاوية الى العمل مرة أخرى، كان قد فهم الكثير مما يحدث في الوطن. الحكومة العسكرية أشعلت نار الحروب في كل مكان، ومعاناة الناس إزدادت بسبب الحروب والفساد. إستجاب لدعوة مختار لحضور إجتماع للعمال، كانوا يخططون لاضراب عن العمل، للمطالبة بتحسين أجورهم وأوضاع عملهم.

حضر عددا من الاجتماعات، وفي يوم خميس قرر أن يستجيب لدعوة مختار لزيارة النهر، كان لديه بعض المال. قرر أن تجربة الذهاب للتعرف فقط على الحياة الأخرى التي تدور قريبا من نهر النيل لن تكون خيانة لحبه لسميرة، حاول إقناع نفسه أن تلك المغامرة الصغيرة لن تكون سوى إستراحة لمحارب أضناه الحب.

وجد معظم رواد المكان من عمال السكة الحديد، هناك بعض التجار والعمال الغرباء في طريقهم لمدن أخرى. شرب كوبا من المريسة، لم يشعر بالتغيير الذي توقعه. شرب كوبا آخر فشعر بإنتعاش طفيف، بشئ مثل تيار كهربائي لطيف يسري في جسده. أخذه مختار جانبا وسلّمه لإحدى الفتيات. شرح لها هامسا أن الصبي جديد لا تجربة له في الحب، إستسلم معاوية ليد الفتاة التي قادته الى غرفتها. كان قلبه يدق بصوت عال، يحاول أن ينسى سميرة فيراها أمامه، بنفس صورتها يوم سلّمها رسالته. فتاة رائعة لا يمكن تخيل أن تستمر الحياة بدون وجودها، لا يمكن تخيل أن تثمر أشجار النخيل وأن يفوح نوار شجر الليمون يغرق ليل قمر الصحراء، ولا أن تصل القطارات وتغادر هذه المدينة بدون سميرة، بدون أن تستيقظ وتغرق النهار في ضجيج أحلامها . لم يكن راغبا في أن يشغله أية شئ عن عيون سميرة التي يراها وكأنها تراقبه في كل مكان، للمرة الأولى شعر أنه كان في الواقع يتشبس بصورة سميرة، لأن حبها كان هو الشئ الوحيد الذي يمكنه وقف شعوره الخارق بالحزن حين ينظر الى مرآة قاع روحه في عينيها، حيث لا شئ سوى وحشة الموت.

تعرّت الفتاة أمامه، تفوح منها رائحة دخان الطلح، صغيرة الجسم مثل سحلية، ضفائرها مجدولة بشرائط ملونة تفوح منها رائحة الزيت، تبدو مثل صبية تستعد للذهاب الى المدرسة. جلس بجانبها محتارا، حاول أن يسترق السمع ليسمع صوت أمواج نهر النيل القريب، وجدها فرصة ليداري إرتباكه، لم تفهم الفتاة ما الذي يريده من فتح نافذة الغرفة الوحيدة، ما أن فتحها حتى إشتم رائحة رطوبة النهر القوية. قالت الفتاة: من الافضل إغلاق النافذة والا ستمتلئ الغرفة في دقائق بالبعوض، قالت له: سوف تصيبك الملاريا. كان تغيير الموضوع الى النهر والبعوض والملاريا مفيدا له، شعر بأنه يستعيد قليلا من زمام مبادرة

الحب. قال لها: هل لأن النهر قريب من هنا يوجد كثير من البعوض؟ شرحت له أنها لا تستطيع النوم الا اذا مسحت جسدها كله بزيت السمسم المخلوط بالرماد، بسبب كثافة البعوض ليلا. فكر هو: البعوض أيضا يحب النهر، يذهب الى النهر كل يوم وليس فقط في أيام الخميس، بدت له فكرة البعوض العاشق مسلية. في بيتهم يظهر البعوض أحيانا أيام موسم فيضان النهر، لكن يبدو أنه بالفعل كما قال صديقه مختار، كلما ابتعدت عن النهر وتوغلت في الصحراء يختفي الحب، ويختفي البعوض.

كانت الفتاة تظن أنها أمام صبي صغير لا يعرف شيئا عما يجب عليه فعله حين يختلي بإمرأة ما. لكنها فوجئت بحيوانه الضخم، ونهمه الهائل للحب، دهشت لأن منظره كان منظر يتيم ضائع على حافة هذه الصحراء. دون أن تلاحظ أن الضياع في نظراته كان بسبب الحب، ربما بسبب براءة عينيه تقبع في جيبه منشورات أعطوها له في إجتماع العمال ليقوم بتوزيعها أثناء تجواله بدراجته في المدينة، لن يصدق أحد رجال السلطة أن هذا الفتى الصغير يحمل مثل هذه القنابل في حقيبة دراجته.

تذكر سميرة فجأة، كان يظن أنه لن يراها هنا، وأن عيونها التي تراقبه ستضل طريقها في عتمة رطوبة النهر، رأى عينيها العسليتين الجميلتين، تضيئان تحت الرموش السوداء الكثيفة، فتضاءل حيوانه حتى إختفى.

شرح للفتاة تفاصيل قليلة من مشكلته، وضعت يدها على جبهته فإكتشفت إنتقال حمى القلب الى رأسه، أمسكت بيده وقادته في دروب جسدها، حتى توقف مترددا أمام باب الجسد. أحضرت له في البداية كوب مريسة آخر تجرعه مثل أكسير حياة، كلما شرب كوبا شعر بالظمأ أكثر، شعر بتوهان بوصلة رغبته، أحضرت له كوبا آخر، فأسلمها قياد نفسه، جرّدته من كل حواجز المقاومة، قامت بقص أجنحة خوفه كلها حتى لا يطير بها مرة أخرى، غرق في طين جسدها حتى قاع أنفاسه، إنتفض جسد الصبية تحت ضغط الآلة المهولة. سالت جداول العرق من جسدها حتى غرقت أرض الغرفة، كان جسد الفتاة مثل طوق نجاة، إلتقطه الفتى قبل أن يغرق في بحر متاهة العاطفة، عرف أنه لوأفلت طوق جسدها فسيواجه وحده أمواج بحر تتلاطم مثل الجبال، مد يده في ذروة المعركة عبر النافذة فغطست يده في أمواج النهر الدافئة الحنون.

في الصباح يستعيد القصر الجمهوري بعض مظاهر هيبته الغابرة. يستعيد هدوءا مشوبا بالخوف، يتحول قطّاع الطرق وسدنة مجون الليل إلى موظفين محترمين نهارا، يحرسون مداخل القصر والوزارات المحيطة. يواصلون التدرب على إستخدام الأسلحة الجديدة التي تحضرها لهم الشركة الوطنية. في فوضى الصخب ليلا لا أحد يكترث له. يعترفون له بسلطة نهارية دون مجد، سلطة تمتد حتى الساعة الرابعة بعد الظهر، من بعد ذلك لا يكترث له أحد، حتى أطقم الحراسة يسحبونها من أبواب القصر، لا يجد أحدا سوى الجندي الصغير، يستغل أحيانا انهماكهم في حياتهم الليلية ويتجول في الحديقة، لا يكترث له أحد، مرة واحدة أوقفه أحدهم، لا ليرى بطاقته وتصريح مروره، بل ليطلب منه أن يمسك له حصانه لحظة حتى لا يهرب ريثما يتبول هو! أمسك السيد الرئيس بحبل الجواد معتقدا أن الرجل سيذهب الى المرحاض، لكن الرجل أعطاه ظهره وهو واقف بجانبه ورفع جلبابه قليلا ثم تبول واقفا وهو يردد كلمات أغنية خليعة بصوت جهوري سعيد، إستغرق وقتا وهو يفرغ مثانته، وكان يلوح بعضوه الذكري وكأنه يستخدم إبريق سقي الزهور لرش أحواض الورد بالماء. ثم نظّف عضوه بحفنة تراب قبل أن يمد يده ليتسلم حبل جواده. إكتشف وجود خيمة كبيرة على جانب الحديقة في الركن البعيد القريب من النهر المختفي. دهش لأن الخيمة كانت محاطة جيدا بالسلك الشائك ويقوم أحد الجنجويد بحراستها. عرف من الجندي الصغير:

هؤلاء اسرى غاراتهم سيدي الرئيس! يتم تسليم الرجال لوحدات خاصة تقوم بإعدامهم ويحتفظون بالنساء!

سمعت أيضا صراخ أطفال صغار!

هؤلاء أطفالهم سيدي الرئيس الذين انجبتهم الاسيرات اللائي يتعرضن للإغتصاب!

ملأه الرعب: نساء يتعرضن للإغتصاب في القصر الجمهوري؟ أين وزارة العدل؟ أين منظمات حقوق الانسان؟

وصلت عريضة شكوى من مواطنة الى القصر الجمهوري، جاءت سيدة مسنة تحمل عريضة وطلبت مقابلة السيد الرئيس، لم يسمح لها الجنجويد بالدخول لكن المرأة لم تستسلم، جلست على حافة الشارع المطل على القصر، حذرها الحرّاس أن الإنتظار في المكان ممنوع، مضت للأمام بعيدا عن القصر قليلا دون أن تدري انها كانت تسير فوق النهر، شعرت كأن الأرض كانت تتحرك من تحت أقدامها، من فرط قوة زلزال الحنين الى الماء! ظل مشهد حضورها ووقوفها في المكان يتكرر كل يوم لعدة أيام، لم تكن تعرف كيف يمكنها الوصول للسيد الرئيس. حفيدتها تحاول أن تجد مسئولا آخر حسب نصيحة بعض معارفهم، كانت تشعر أن لا حل سوى أن تكون هنا حتى تجد من يساعدها للدخول أو يخرج ساكن القصر نفسه صدفة وتتمكن من لقائه.

جاء جندي الحراسة الصغير، كان يتسكع في المكان بالصدفة وكأنه يبحث عن شئ ضاع منه في النهر قبل جفافه، كان هو الوحيد الذي تبقى من طاقم الحراسة القديم، مفروض أن يساعد السيد الرئيس في إرتداء ملابسه وينظف له حذائه، حين يكون هناك لقاء رسمي في القصر، بسبب بقاء الرئيس طوال الوقت داخل القصر في الفترة الأخيرة، وعدم وجود زوار، أصبح الجندي الصغير يتغيب احيانا وحين يحضر يقوم ببعض الأعمال الصغيرة ويحاول أن ينقل للسيد الرئيس، حسب رؤيته صورة عن العالم خارج القصر. نادته السيدة العجوز: هل تسدي لي معروفا يا ولدي؟ توقف الجندي الصغير، شعر بشئ خارق يجذبه للسيدة المسنة، كأن والدته التي لا يعرف أين هي الآن وإن كانت على قيد الحياة هي التي تناديه. قبل أن يقول شيئا كانت العجوز قد بدأت تحكي قصة حفيدها اليتيم المهدد بالموت في كل لحظة، استمع الجندي الصغير بصبر ثم طلب منها أن تسلّمه العريضة ووعدها أن يقوم بتسليمها للسيد الرئيس.

ألا يمكنني تسليمها له شخصيا؟ قالت العجوز، بودي أن اطمئن قبل أن أعود الى بيتي، أنه سيفعل شيئا ما من أجل إبني، حفيدي اليتيم الذي قمت بتربيته مثل إبن منذ موت والديه اثناء رحلة الحج.

فكر الجندي الصغير ثم سألها: هل حاولت مقابلة الجنرال الآخر في الشركة الوطنية؟

قالت العجوز: حفيدتي ذهبت الى هناك وقد رتبوا لها موعدا لمقابلة مدير الشركة، لكنني أرغب في لقاء الرئيس، هو الذي يستطيع أن يفعل شيئا لإنقاذ حفيدي.

وعدها أنه سيحاول أن يحصل لها على اذن بالدخول، لا يعرف ان كان ذلك ممكنا اليوم أم في وقت آخر، وإن لم يستطع سيعود مرة أخرى ليتسلم منها العريضة.

قالت العجوز: حاول اليوم يا بني، الموت لا ينتظر طويلا.

في الداخل وجد السيد الرئيس يشرب القهوة، كان الارهاق باد على وجهه بسبب عدم النوم.

قال موضحا: كانوا يغنون ويرقصون طوال الليل!

قال الجندي الصغير: هل تقصد الجنجويد يا سيدي.

رد السيد الرئيس: وهل هناك غيرهم؟ يبدو أنهم كانوا يحتفلون بزواج أحدهم، ألا يتعب هؤلاء الناس من الزواج؟ حين لم أستطع النوم حتى منتصف الليل بسبب الموسيقى الصاخبة وصوت الالعاب النارية، ذهبت الى بهو القصر لمشاهدة التلفزيون. وفجأة جاء الى المكان ثلاثة رجال، كانوا سكارى تماما. لم يهتموا بوجودي وجلسوا بجانبي يشاهدون التلفزيون، حين ظهرت صورتي في نشرة الاخبار، قال أحدهم:

من هذا العجوز؟

رد عليه الثاني: يبدو أنه شخص مفقود، خرج من بيته ولم يستطع العودة، بسبب إصابته بالخرف، ينشرون صورته عسى أن يتعرف عليه شخص ما ويعيده الى ذويه!

يا للمهزلة وانا أجلس بجانبهم، لم يحاولوا حتى مطابقة الصورة مع الشخص الجالس بجانبهم، بعد نشرة الاخبار كان هناك برنامج غنائي مخصص لأغاني الحماسة والفروسية، ما ان بدأ الغناء حتى هبوا من أماكنهم وانخرطوا في الرقص ثم سحبني أحدهم من يدي ودفع بي للرقص! وحين حاولت العودة لمقعدي طلب مني أحدهم أن أحضر له كوب ماء! يا للمهزلة!

تلفت السيد الرئيس حواليه حذرا ثم قال:

سأطلب توضيحا من مندوب الشركة الوطنية حول وجود هؤلاء المسلحين في القصر!

قال الجندي الصغير: هناك سيدة في الخارج تود تسليم سعادتكم عريضة شكوى!

دهش السيد الرئيس حتى أنه لزم الصمت لبرهة وهو يحدق في الجندي الصغير، كانت المرة الاولى التي يطلب فيها شخص ما من الشعب مقابلته منذ القرن الماضي.

لم يسأل حتى عما تريده السيدة، طلب من الجندي أن يسمح لها فورا بالدخول.

قال الجندي: يجب أن نطلب في البداية إذنا من حرّاس القصر الجدد.

إستقبل السيد الرئيس السيدة بعد قليل. كانت قد حضرت بالقطار في رحلة إستغرقت أياما ثم قضت عدة أيام مع بعض أقربائها في أحد أطراف العاصمة قبل أن تتمكن من الحضور الى القصر. شربت السيدة العجوز كوب الشاي الذي أعده الجندي، ثم بدأت تحكي قصة رحلتها الطويلة بالقطارومعاناتها طوال أشهر حتى تستطيع مقابلته.

كان الرئيس تواقا لمعرفة أي شئ عن الحياة خارج القصر، سأل العجوز عن رحلة القطار والناس الذين كانوا معها في رحلتها وكم تكلّف الرحلة بالقطار. وكيف تمضي الحياة في المدينة البعيدة التي جاءت منها. كيف يعيش الناس؟ هل يذهب الاطفال الى المدارس؟ هل السلع الغذائية متوفرة في الاسواق، وهل يستطيع الناس كلهم شرائها؟ قالت العجوز أن الأسواق مليئة بكل شئ، لكن الناس لا تستطيع شراء كل شئ، ما لم يكن لديك قريب خارج الوطن يساعدك ببعض المال لن تستطيع شراء أية شئ. قال السيد الرئيس: لكنني سمعت أن هناك ثورة زراعية والانتاج جيد. لكن العجوز شرحت له أن المواسم الزراعية فاشلة لأن البنوك التابعة للحكومة تحتكر كل شئ ولا تمهل المزارع وقتا لتتحسن أسعار المحاصيل الزراعية قبل بيعها، مما أدى لاعسار معظم المزارعين وهجر الكثيرون الزراعة واتجهوا للتنقيب عشوائيا عن الذهب.

أطرق السيد الرئيس وقال: نفس الشئ حدث مع جيشي!

حكت له العجوز قصة حفيدها الذي وقع في أسر قوات الحكومة منذ أشهر. قالت له أن حفيدها كان ضابطا في الجيش لكنه كان يرفض حرق القرى وقتل المدنيين الذين لا ذنب لهم، وإنه ترك الجيش بسبب ممارسات القوات التي تحارب مع الجيش.أوضحت له أن حفيدها يتيم الأبوين، مات والداه منذ سنوات أثناء اداء فريضة الحج وأنها قامت مع جده بتربيته. فأصبح مثل إبنها تماما، حكت له أن إبنها كان إنسانا كريما يحب الخير لكل الناس، ولا يقبل أن يقع الظلم على المساكين، هناك ظلم كثير وقع على الناس في كل مكان، وفي

مناطق الحرب يقولون أن القوات التي تحارب مع الجيش تغتصب النساء وتسترق الأطفال. قرى كثيرة أحرقت وأجبر أهلها على النزوح.

حكت له بعض تفاصيل حياتها بعد موت زوجها، وأنه لم يعد لها في الدنيا غير حفيدها وشقيقته، ولأنها إنسانة مسنة ومريضة تحتاج لإبنها بجانبها، تحتاج لحنانه ومساعدته، حكت له أنها قبل سنوات حين أصيبت بمرض في عينيها وقبل أن تعالج، كان حفيدها هو عيونها التي ترى العالم من خلالها، وانه كان يقوم بكل شئ من أجلها. وحين تصاب بمرض أو حمى يبقى الليل كله ساهرا بجانبها ويطعمها بيديه، ويحملها الى الحمام. قالت أكثر من حوجتي لحنانه وقربه بجانبي أخاف على شقيقته المسكينة ان مت لن تجد في هذا العالم من يحميها ويقف بجانبها في حياة تزداد مصاعبها ومشاكلها في كل يوم ، ثم قدمت له عريضة إلتماس العفو عن حفيدها.

مسح السيد الرئيس الدموع من عينيه حتى يتمكن من قراءة العريضة. إستمرت دموعه تنزل وهو يقرأ العريضة، طلب من الجندي أن يطلب إحدى سيارات القصر لتقوم بنقل السيدة العجوز الى البيت الذي تقيم فيه. لكن الجندي أبلغ السيد الرئيس أنه لا توجد في القصر حسب علمه أية سيارات، قامت الشركة الوطنية بسحب كل سيارات القصر وبيعها في المزاد العلني، ذهب السيد الرئيس الى غرفة نومه وأخرج من حقيبته عدة أوراق مالية دفع بها للسيدة العجوز ودفع للجندي أيضا ببضع أوراق مالية ليستأجر عربة تاكسي للسيدة. دست السيدة العجوز النقود في جيبها وفعل الجندي الصغير الشئ نفسه، لم يشأا أن يقولا له إن هذه النقود لم تعد مستخدمة، منذ أن قامت الشركة الوطنية قبل سنوات بتغيير العملة الوطنية.

قام بوداع السيدة العجوز حتى باب القصر ووعدها بعمل كل شئ من أجل إطلاق سراح حفيدها فورا.

قال مندوب الشركة الوطنية حين رأى العريضة وسمع طلب السيد الرئيس:

الأمر بيد القضاء سيدي الرئيس، والقضاء في بلادنا مستقل عن السلطة التنفيذية كما تعلم فخامتكم، لا يمكننا التدخل.

اذا ما دام الامر بيد قضاء نزيه كما تقول، لابد أن للمتهم محام. أريد أن أحدد موعدا مع محامي هذا الضابط المتهم!

بدا على مندوب الشركة الوطنية بعض الإرتباك، لكنه قال: بالطبع هناك محام. لكن حسب علمي لا زالت مثل قضية هذا الضابط الذي كان يحارب مع إحدى حركات التمرد، بيد القضاء العسكري وبإعتباره كان أيضا ضابطا بالجيش تمرّد على القوانين العسكرية.هناك محام لكل متهم أمام المحاكم العسكرية لكنه لا يكون في الغالب على إتصال مستمر بموكله. فقط يحضر معه جلسات المحاكمة، هذا كلام عام على كل حال، أعطني فرصة لجمع معلومات أكثر عن القضية وسأقدم لك تقريرا عنها في أقرب فرصة.

إختفى المندوب لعدة أسابيع، حاول الرئيس الاتصال بالشركة الوطنية لكن التليفونات كانت دائما مشغولة أو خارج الخدمة، وعده الطبيب حين وجده يتحدث كثيرا عن هذه القضية بالاتصال بهم، لكن لم يحدث شئ. حين وجد الجندي الصغير الرئيس قلقا بعد عدة أيام قام بإبلاغ عسكر الجنجويد الذين يحرسون بوابة القصر. فحضر المندوب في اليوم التالي.

توقع السيد الرئيس أن يسمع أن السجين قد أعدم كما تعود ان يسمع لكنه فوجئ بالاجابة:

لقد تم اطلاق سراحه فعلا سيدي الرئيس منذ عدة أشهر، قبل أن يوضح:

عفوا لأنني تأخرت على فخامتكم، لكن بسبب ضياع عدد من ملفات القضايا التي تحوي أسماء كل المعتقلين من حركات التمرد في الأشهر الماضية لم نستطع العثور على معلومات عنه بسرعة. صدر أمر من فخامتكم بالعفو عن عدد من حاملي السلاح ضد الدولة، بعد توقيع إتفاقية سلام مع الفصيل المتمرد الرئيسي قبل أشهر. ولأن المذكور أسر أثناء معركة مع احدى الحركات المتمردة فقد أطلق سراحه أيضا مع عدد من منسوبي حركات التمرد!

قال السيد الرئيس: إن كان قد أطلق سراحه كما تقول أين هو الآن؟

لا علم لنا بذلك سيدي الرئيس، لقد اصبح مواطنا حرا منذ لحظة اطلاق سراحه. ربما غادر الوطن، بعض من يطلق سراحهم يعودون للانضمام للتمرد أو يسافرون الى بعض الدول الاوربية يطلبون حق اللجوء السياسي، البعض يعيشون في بعض الدول المجاورة.

قال السيد الرئيس من أين جاءت قوات الجنجويد؟

أوضح المندوب: هذه قوات السلام والتنمية لا علاقة لهم سيدي بتلك القوات التي سعت الدوائر الامبريالية لإختلاق قصة تكوينها ودعمها من الحكومة وإرتكابها لمجازر في دارفور. كانت هناك حرب أهلية في ذلك الاقليم بسبب الجفاف سيدي الرئيس، منذ الجفاف الذي ضرب المنطقة أوائل عقد ثمانينات الفرن المنصرم لم تستقر الاوضاع في الاقليم سيدي الرئيس. كما تعلم أن هناك قبائل رعوية وقبائل اخرى تعمل في الزراعة، حين عم الجفاف الاقليم ولم تهطل الامطار، وجفت المراعي الضخمة وأصبحت صحراء قاحلة، بدأ الرعاة يقتحمون المزارع بحثا عن الحشائش لقطعانهم التي كانت تموت أمام أعينهم. البهيمة مثل الطفل لا يمكنك ان ترى طفلك يموت امام عينيك ولا تحرك ساكنا سيدي الرئيس. والمزارع لن يقبل بتخريب مزرعته، أشجاره ايضا مثل أطفاله، يسهر الليالي في رعايتها وسقيها. فكان أن نشأت الحروب بين القبائل، لقد ورثت الشركة الوطنية ذلك من عهدكم الاول سيدي الرئيس، وقد حاولنا كثيرا ان نجد حلا جذريا لهذه المشكلة، دون جدوى.

قال الرئيس: لقد كنا نحاول نحن آنذاك حل المشكلة عن طريق محاولة تعويض المتضررين وترتيب مؤتمرات الصلح بين القبائل المتنازعة. لكنكم قمتم بتسليح قبائل ضد أخرى وزاد هذا المشكلة تعقيدا.

تلك دعايات الاعلام الغربي سيدي الرئيس، بالعكس نحن حاولنا القضاء على الجفاف. وأرسلنا أئمة وعلماء يصلّون بالناس في كل مكان صلاة الاستسقاء أملا في هطول المطر. قاموا بالصلاة في كل مكان، في نيالا وفي الدلنج وكادقلي، حتى أقصى حدود الاقليم، ولكن لا حياة لمن تنادي، لم تنزل قطرة مطر واحدة. هل سنخرج في مظاهرة ضد العناية الالهية سيدي الرئيس؟ لقد أصبح الأمر غضبا إلهيا. أرسلنا نفس الأئمة ينصحون الناس بإصلاح دينهم حتى يزول غضب السماء. لكن الناس لم يكن لديهم أية وقت لذلك كانوا مشغولين بالعراك والحرب مع القبائل الاخرى حول المراعي، من يقضي وقته في الشجار حول المطر سيدي الرئيس لن يجد وقتا لإصلاح علاقته مع خالقه!

قال السيد الرئيس: هل حاولتم الدعوة لمؤتمرات صلح بين القبائل؟ هل دفعتم تعويضات للتمضررين وديات القتلى كما كنا نفعل في سنوات الجفاف الاولى حين تنشأ المنازعات بين القبائل؟

قال الرجل: نعم أرسلنا نفس الائمة يدعون للسلام بين الناس، ودعونا الناس لمؤتمر للسلام إستمر اكثر من ثلاثة عقود سيدي الرئيس، وكنا ندفع تكلفة إقامة المؤتمرين في الفنادق سيدي الرئيس وندفع لهم مرتبات مقابل التفرغ للسلام، حتى لا يجوع اطفالهم قبل تحقق السلام. وكنا نتحمل نفقات دفن من يموتون بسبب الشيخوخة أثناء المفاوضات سيدي الرئيس، نسميهم شهداء السلام.

قاطعه السيد الرئيس: وهل تقيمون لهم أيضا أعراس الشهداء؟

قال الرجل: كلا، انهم لا يموتون في ساحات المعارك سيدي الرئيس، يموتون في الفنادق، من رهق السلام. تصيبهم أمراض السلام، النقرس وإرتفاع ضغط الدم وارتفاع سكر الدم وأمراض القلب. بعضهم جاءوا الى المؤتمر عذّابا سيدي الرئيس وحين طالت حياة السلام وقرروا العودة لميادين الحرب مرة اخرى، لم يستطع معظمهم ذلك، فقد تزوجوا اثناء المفاوضات وكنا نتحمل تكلفة حفلات زفافهم الجماعي سيدي الرئيس، وكنا نلبي كل طلباتهم: يطلب أحدهم: أريد مطربة إثيوبية في حفل زفافي، أريد المطرب محمود عبدالعزيز، يجب أن يكون حفل الزفاف في إستاد فريق المريخ لأنني من عشاق المريخ، وطلب أحدهم المطربة شاكيرا لتغني في حفل زفافه. وحين حضرت الى الحفل إستخدمت قوات السلام والتنمية الرصاص الحي لتفريق حضور الحفل والمعجبين الذين كادوا يحطمون المسرح الذي غنت فيه المطربة الشهيرة، قدمنا تنازلات وأحضرناها رغم ان هيئة

العلماء أفتت بحرمة إحضار مطربة أجنبية حتى لا يتأثر الشباب برقصها وطريقة إرتدائها لملابسها. تزوج بعض هؤلاء المعارضون عدة مرات، وانجبوا اطفالا ضاقت بهم فنادق السلام فاضطررنا لإنشاء فنادق إضافية. ومدارس ملحقة للأطفال، ومحاكم أحوال شخصية لفض منازعات الحب، وفي أثناء المفاوضات كنا نضطر أحيانا لإيقاف جولة المفاوضات لحين توقف عراك الزوجات وصراخ الأطفال في الغرف المجاورة لقاعة التفاوض، لقد عملنا وضحينا كثيرا من أجل السلام سيدي الرئيس!

قال السيد الرئيس: ولماذا لم تصلني بطاقة دعوة لحضور حفل الزفاف الجماعي الذي غنت فيه شاكيرا في حراسة الجنجويد؟! وما سبب وجود قوات الجنجويد في العاصمة وفي قصري بالتحديد؟

قال المندوب: كان الحفل قبل أعوام سيدي الرئيس، وكانت حركات التمرد على وشك دخول العاصمة، قمنا بنقل كل الوزراء والمسئولين الى مناطق آمنة، وشددنا الحراسة حول القصر الجمهوري، الذي تولت حراسته فرقة خاصة من قوات السلام والتنمية، أود تنبيه سعادتكم مرة أخرى الى اسم هذه القوات سيدي الرئيس: اسمها قوات السلام والتنمية ، ما يسمى بقوات الجنجويد هو إختراع للمعارضة وبعض الدوائر الغربية المعادية لوطننا وديننا.

وهل تحتاج التنمية لقوات؟

مهمتهم حراسة حدود الوطن سيدي الرئيس ومحاربة حركات التمرد، وبدون سلام واستقرار كيف ستكون هناك تنمية سيدي الرئيس؟!

قال السيد الرئيس: الاسم يوحي انهم سيقومون بزراعة الارض وتنمية اقتصاد الوطن، ولا يمكن القيام بذلك باستخدام السلاح، يستخدم المزارع الملود والمعول، لم أر مزارعا يستخدم الكلاشنكوف رغم انني طفت الوطن كله وحتى في أقسى أيام فصول جفافه. أليس من الأوفق ان يقوم جيشي بحماية السلام، يحمي حدود الوطن لينشغل بقية المواطنون كلهم بالتنمية بدلا من ان يحمل الجميع السلاح، على الأقل إنّ جيشي لا يتمرد حين لا يتسلم مرتباته بينما هؤلاء المسلحون اذا تأخرت مرتباتهم يوما واحدا يحتلون القصر ويعلنون الأحكام العرفية، الشئ الوحيد الذي لا افهمه كيف اكون انا مسجونا في القصر ورهينة بأيدي الجنجويد لحين سداد متأخرات مرتباتهم، وفي الوقت نفسه أقص شرائط افتتاح مشاريع وطن السلام في جهاز التلفزيون؟!

قال المندوب: لقد تعودنا من سعادتكم العمل دائما والتضحية من أجل الوطن وفي أسوأ الظروف ورغم كل المحن والمؤامرات!

قال الرئيس: هذا صحيح لكنني أحتاج على الأقل ألا أكون مسجونا في الحمّام، أو في مكتبي الذي يقف أمام بابه حارس من الجنجويد يحمل مدفع آر بي جي، لكي أواصل التضحية من أجل الوطن!

عفوا سيدي الرئيس أود فقط تذكيرك مرة أخرى، أن كلمة جنجويد هذه من صنع الدعاية الغربية المسمومة التي لا تريد خيرا بهذا الوطن وتريد زرع الفتن بين مكونات شعبنا وإستهداف عقيدتنا واستقلال قرارنا الوطني!

وهل لا تزال هناك حركات تمرد، إنني أسمع يوميا في جهاز التلفزيون إنه تم القضاء على التمرد نهائيا. وان المواطنين يعيشون جميعا سعداء بفضل حكمة الشركة الوطنية التي تقود سفينة الوطن! وان مفاوضات السلام اثمرت عن اتفاقية لاس بالماس دي غران كناريا، التي ألقى بموجبها كل حملة السلاح أسلحتهم وعادوا الى حظيرة الوطن يشاركون في تنميته! بعد ان صدر عفو عام عن كل من حمل السلاح ضد السلطة.

المشكلة سيدي الرئيس انه كلما ظهرت حركة تمرد ضد السلطة، نفتح فندقا جديدا وندعو قادتها للحضور من اجل التفاوض للسلام، وحين يطيل غياب القادة الذين ذهبوا للتفاوض، وينقطع الاتصال بينهم وبين قواعدهم بمرور الزمن، يظهر قادة جدد في ميدان المعارك ويبدأون معارك جديدة حتى نتمكن نحن في فترات ركود السلام، من تشييد فنادق جديدة لاستيعاب متفاوضين جدد فيها. بعض القادة ينسون ايضا أنهم وقعوا معاهدات سلام ملزمة، وبسبب تأخر إستيعاب قواتهم ضمن أجهزة الأمن والشرطة كما تنص على ذلك معاهدات السلام، يقومون بالعودة لميادين القتال وإستئناف الحرب مرة أخرى، أو يفعلون ذلك فقط بسبب عدم إعتيادهم على البقاء دون حرب، لقد ضبطنا مرة وزيرا إقليميا يقود فصيلا متمردا في عطلات نهاية الاسبوع، اي أنه مع الحكومة في أيام العمل الرسمية ومتمرد بعد الظهر وفي العطلات الرسمية!

وما سبب وجود هذه القوات أيا كان اسمها، جنجويد، سلام أو تنمية في قصري؟

هناك بعض الحركات تحاول الوصول للعاصمة سيدي الرئيس، لذلك إستعنا بقوات السلام والتنمية التي أثبتت كفاءة في محاربة التمرد لمساعدة القوات المسلحة في حماية العاصمة!

هل تعني ان حدود الوطن أصبحت حول العاصمة؟

لا بالطبع سيدي الرئيس، بقية قوات السلام والتنمية تحرس حدود الوطن كلها، ما أهمية بقاء الوطن إن غرق رأس الوطن في الفوضى؟ العاصمة هي رأس الوطن.وفيه رمز السلطة ومؤسسات الدولة سيدي الرئيس!

يكتشف السيد الرئيس إنه لا يستطيع أن يجد أي من مستشاريه القدامى، في بحثه عن خيط يقوده في متاهة البحث عن معلومات في قضية ضابط الجيش المتمرد الذي وقع في يد قوات الجيش، لم يجد أثناء بحثه في أوراقه القديمة أية دليل يقوده الى طريقة للاتصال بأحد مستشاريه القدامى.

يقول له الجندي الصغير: لكن لا يوجد جيش سيدي الرئيس، هذا الرجل يكذب عليك. لقد قاموا بتسريح الجيش كله، بعض الجنود مثلي يعملون في شركات أمنية خاصة يملكها منسوبي الشركة الوطنية والبقية إنتشروا في الصحاري يبحثون عن الذهب!

تعني أنهم يعملون مع شركات التنقيب عن المعادن؟

لا توجد شركات للتنقيب، كل مواطن يحفر في الأرض لوحده، يستخدم الغالبية معاول الزراعة العادية. بعض من يملكون بعض المال يستخدمون الجرارات الزراعية في حفر الأرض، المسألة تعتمد على الحظ. قد تحفر الأرض طوال عام كامل ولا تعثر على اية شئ. وحين يعثر أحدهم على شئ ما، تظهر إحدى الشركات التابعة للشركة الوطنية وتقوم بتحصيل الضرائب والزكاة والرسوم الحكومية الاخرى منه، ثم يشترون ما يتبقى من الذهب، يقال إنّ مواطنا عثر على سبيكة ذهب تزن ثلاثة كيلوغرام، وبعد إحتساب ضريبة الانتاج وخصم تكلفة الزكاة وغرامة البحث عن الذهب بدون تصديق حكومي وغرامة تلوث البيئة ودمغة الجريح وضريبة الجهاد، لم يتبق للمواطن المسكين سوى ثلاثة جرامات من الذهب!

لكن هذا ظلم! وهل يذهب جميع الناس بحثا عن الذهب؟

معظمهم من الشباب الذين تقطعت بهم السبل ولم يعثروا على فرص عمل أو فرصة للهجرة، لكي تجد فرصة للعمل في مؤسسات الشركة الوطنية يجب أن تكون ذقنك قديمة!

ماذا تعني بذقن قديمة؟ هل يقوم كل من لديه ذقن بإستخراج شهادة بحث يكون فيها تاريخ إنشاء الذقن وتاريخ تسجيلها لدى مصلحة الذقون!

كتم الجندي الشاب ضحكته التي كادت تنفجر، تأدبا في حضرة السيد الرئيس وقال: أعضاء الشركة القدامي يعرفون بعضهم البعض، و لكن لأن سبل الرزق باتت صعبة ولا يجد المواطن العادي فرصة للمنافسة في فرص العمل مع أعضاء الشركة القدامى، يلجأ البعض ممن تقطعت بهم سبل الرزق لتركيب ذقن صناعية قديمة، تباع سرا في الأسواق بعدة جنيهات، كما يمكنك أيضا ببضعة جنيهات عمل غرة في جبينك تعطي إنطباعا انك من اعضاء التنظيم القدامى حين كان لديهم الوقت للصلاة. هناك محلات متخصصة في بعض الأسواق البعيدة لعمل غرة الصلاة ولتركيب ذقن صناعية يكون شعرها مشابها لنوع شعر رأسك. وحتى لا تختلط الامور قامت الشركة الوطنية بإنشاء أرشيف الكتروني للأعضاء القدامى، يسمونه مصلحة الرقم الوطني ويسميه المواطنون تهكما مصلحة الذقون الوطنية. حين تود الترشح لوظيفة ما يجب أن تذهب الى مصلحة الرقم الوطني هناك يقومون بفحص سجلك الوظيفي وبناء على التوصية التي يرسلونها الى جهة العمل يتم تعيينك اذا ثبت أن ذقنك القديمة أصلية، أو ينصحونك بالبحث عن عمل في مصلحة أخرى أو الذهاب للبحث عن الذهب او العمرة ان تم التثبت أن ذقنك تم صنعها في الصين دون الحاجة لنزعها من وجهك أو نزع وجهك منها!

سأل السيد الرئيس الجندي الصغير: هل صحيح أن هذه القوات التي تسمى قوات التنمية والسلام لم ترتكب مجازر في غرب الوطن وأن تلك دعايات من الاعلام الغربي كما يقول مندوب الشركة الوطنية؟

قال الجندي: أنا نفسي أنتمي الى إحدى قرى الاقليم سيدي الرئيس، لقد غادرته وأنا صغير ولم استطع العودة مرة اخرى بسبب الحرب. وحين سنحت لي فرصة للسفر قبل سنوات لاطمئن على أسرتي، وصلت الى هناك بصعوبة بسبب عدم إستتباب الأمن، ولولا انني كنت ارتدي ملابس الشركة التي أعمل معها لما استطعت الوصول. لم أجد أحدا من أسرتي، عرفت أن القرية أحرقت كلها بواسطة غارات الانتينوف وأكملت قوات الجنجويد المهمة، بعض سكان القرية إستطاعوا الهرب لكنني لم استطع معرفة أية معلومات عن أسرتي.

القرية نفسها يسكن فيها غرباء لم أعرف من أين جاءوا، سمعت من بعض الرجال في المدينة القريبة أن الحكومة أحضرت غرباء من خارج الوطن وباعت لهم البيوت والاراضي التي هجرها أهلها بسبب الحرب. حتى في المدينة تجد دائما غرباء في كل مكان، لكنهم يحملون أوراقا ثبوتية تفيد أن أجدادهم ولدوا هنا، ويجيدون حتى اللهجات المحلية.

حين سأل السيد الرئيس عن قائد قوات الجنجويد التي باتت تقاسمه القصر، قال المندوب إن قائد قوات السلام والتنمية والذي يحمل أيضا رتبة جنرال، كان يعمل مدرسا في مدرسة إحدى قرى دارفور، وكان يؤم الناس يوم الجمعة في الصلاة وكان رئيسا للجمعية التعاونية التي تدعم الرعاة والمزارعين في القرية وتساعدهم في تسويق منتوج الصمغ العربي، وفي الفترة الديمقراطية تم انتخابه نائبا عن المنطقة.

لكن الرجل إعترف أمامه دون مجد انه بدأ حياته لصا للحمير، ثم تدرج في النهب حتى اصبح قائدا لمجموعة نهب مسلح قبل أن تستأجره السلطة وتزوده بالسلاح وتساعده في تدريب رجاله. حين تحدث له مشاكل مع السلطة التي تستأجره، كان يحضر مخمورا يبحث عن حائط مبكى، ذات مرة إقتحم غرفة النوم وهو يغني، يقول السيد الرئيس المشكلة ليست في الأغاني الهابطة التي يرددها، المشكلة أنه يجبرني على الغناء معه! جلسا يغنيان، أعد السيد الرئيس كوبين من القهوة. شرب قائد الجنجويد القهوة كأنه يتجرع سما، وضع فنجان القهوة الفارغ وقال: هل لديكم مشكلة سكّر هنا في القصر أيضا سيدي الرئيس؟

المفاجأة أنه لم يأت ليشكو الشركة الوطنية لأنها لم تدفع مرتبه ومرتبات رجاله كما يفعل أول كل شهر.

كان قادما ليبكي بسبب الحب! كان يبدو شخصا مختلفا، لا يحمل أية سلاح سوى قلبه! شرب السيد الرئيس قهوته بسرعة حتى يتغلب على النعاس الذي يجعله يخلد الى النوم في حضرة قائد الجنجويد.

كان يظن أنه يحمل كالعادة رسائل ليقرأها له ويشرح له مضمونها. لكن قائد الجنجويد أخرج بدلا من ذلك تليفونه المحمول ووضعه أمام السيد الرئيس قائلا: أنظر الى هذه الصورة!

ظن السيد الرئيس أنه يقصد رسالة نصية وصلته في الهاتف يريده ان يقرأها له، لكنه حين نظر في شاشة الجهاز رأى صورة أجمل إمرأة في العالم. شعر للوهلة الأولى أنه يعرف صاحبة الصورة، صورة طبق الاصل من إمرأة رآها في أحد أزمنة سلطته، إمرأة كانت تملك مثل ذلك المغني الضرير الذي إختفى في ذاكرته قبل أن يختفي في زحام الدنيا. إمرأة كانت تملك مقدرة خفية للتحكم في المطر!

قال قائد الجنجويد: رأيتها بالأمس حين ذهبت لإستلام مرتبي من مكتب حسابات الشركة الوطنية! كانت تجلس في مكتب مستشار الجنرال رئيس الشركة يقال أن الجنرال سيتزوجها!

قال السيد الرئيس: وهل هطلت الأمطار حين جاءت الفتاة؟

دهش قائد الجنجويد وقال: كيف عرفت؟ مجرد أن ظهرت الفتاة أمام الشركة حتى بدأت الأمطار تهطل بغزارة، كان ذلك السبب الذي جعلني أدخل الى مبنى الشركة مرة أخرى بعد أن تسلمت مرتبي، لأحتمي من الأمطار! الحقيقة أن هطول المطر لم يكن مشكلة فأنا مجرد بدوي عشت عمري في الصحراء وحين يهطل المطر أحتفي به ولا أختفي منه. يخيفني الجفاف، المطر لا يخيفني، عدت الى الشركة لأرى الفتاة الجميلة مرة أخرى.

قال السيد الرئيس: هل أنت متأكد أن الأمطار كانت تهطل بغزارة عند ظهورها.

قال قائد الجنجويد، ذلك يبدو طبيعيا، جزء منها. لم ألاحظ أن ذلك لم يكن عاديا وأن موسم الخريف لا يزال بعيدا الا بعد أن سمعت سؤال سعادتك إن كان المطر يرافقها!

قال السيد الرئيس، لن يستطيع الزواج منها إذن!

ضحك قائد الجنجويد، بحزن وقال: الجنرال يستطيع عمل كل شئ، لقد فكرت حين رأيتها في إحتلال المكان وإختطاف الفتاة. بإمكانها إن وافقت على الزواج مني أن تعيش معي هنا في القصر الجمهوري!

عرفت أن شقيقها مسجون، محكوم عليه بالاعدام بسبب إنضمامه لاحدى حركات التمرد التي نحاربها، لابد أنني ألقيت القبض عليه دون أن أعرف أنه شقيق أجمل فتاة في الوطن! لو كنت أعرف ذلك لعينته مساعدا لي. يريد أن يحارب فليحارب، سأعينه جنرالا، أحتاج لرجال يتطوعون للموت!

لم يربط السيد الرئيس حتى تلك اللحظة بين العريضة التي يحملها في جيبه وبين شقيق الفتاة الجميلة، فكر قليلا وقال: لابد أنه مؤمن بالقضية التي يحارب من أجلها مادام يتطوع للحرب ومواجهة الموت.

قال قائد الجنجويد: لا توجد قضية، إنه لا ينتمي حتى للمناطق التي تضررت من الحرب! إنه من أقصى شمال الوطن، كيف يمكن لجمال مثل جمال هذه الفتاة أن ينمو في تلك الصحراء القاحلة! يا للغرابة، تقود المطر من خلفها وفي المدينة التي نشأت فيها لم تهطل قطرة مطر منذ أكثر من قرن!

قال السيد الرئيس: ومتى سيكون الزواج؟

قال قائد الجنجويد: لقد إشترطت الفتاة عليهم أن ترى شقيقها في البداية قبل تحديد موعد الزفاف!

وأين شقيقها؟

يقال أنه محتجز في إحدى سجون مدن الغرب البعيدة، في نفس المدينة التي شارك مع حركته في إحتلالها لعدة أيام قبل أن تطردهم قوات الجنجويد، سأقوم بالبحث عنه وإذا عثرت عليه ربما أستطيع عمل شئ!

ماذا تقصد بعمل شئ؟

ربما سأفعل مثل الجنرال حين يتزوج من أرامل الشهداء!

قال السيد الرئيس مازحا: هل ستتزوج من خطيبة الرجل الذي يدفع لك مرتبك ومرتب رجالك؟

قال قائد الجنجويد: أنا الذي أقوم بحمايته وحماية أنابيب البترول التي يؤجرها للدول المجاورة لنقل كل شئ، أنا الذي أقوم بجمع الضرائب من مناطق الانتاج، مناطق إنتاج

الذهب ومناطق الزراعة المطرية. أنا الذي أمنع حركات التمرد من الدخول الى العاصمة. من حسن حظهم أنني حين رأيت الفتاة اليوم كنت قد تسلمت مرتبي. سأكون مضطرا لعدم التمرد لمدة شهر، لو لم يكن هناك نقود في خزانة الشركة الوطنية اليوم، لفزت بالفتاة! يا لسوء حظي! في كل شهر أقف أمام الشبّاك ليقول لي الموظف بعد ان يتأكد أنني اشغل وظيفة مع الشركة الوطنية، أنه لا توجد نقود كافية وعلي أن أعود في الغد! فأعطي لرجالي من أمام الشباك تعليمات بالتليفون المحمول ليتوقفوا عن العمل في أي مكان. حتى الذين ينفذون أحكام الاعدام في المتمردين، يضعون بنادقهم جانبا بعد ان يصوبوها نحو صدور المتمردين، رجالي الذين يجمعون الضرائب على الذهب ومحصول السمسم أعطيهم تعليمات بالتوقف وعدم إعطاء اية مبالغ حصلوا عليها الى مندوبي الشركة الوطنية. نصادر أموال الجبايات لحين دفع مرتباتنا. رجالي الذين يقومون بحفظ الأمن في بعض المدن يقومون بإطلاق سراح اللصوص الذين قبضوا عليهم للتو وإذا رأوا لصا يتسلل عبر الجدران لأى بيت أو مؤسسة يديرون وجوههم الى الناحية الاخرى وكأنهم لم يروا شيئا. فقط يقتسمون مع اللص اذا عثر على شئ ذا قيمة في هذه البلاد الفقيرة! التي لم تترك فيها الشركة الوطنية شيئا له قيمة الا ونهبته! ذات مرة طلبوا مني إرسال قوة لحماية منطقة غنية بالتماثيل القديمة، لأن هناك بعثة إنجليزية تقوم بالتنقيب في المنطقة لكن البعثة تعاني من هجمات لصوص الآثار. ذهبت مع جزء من قواتي، كان ذلك قبل أن تصدر لنا التعليمات لنحضر لحماية العاصمة، نصبنا خيامنا حول منطقة الآثار وقمت بتقسيم رجالي الى ثلاث مجموعات لحراسة المنطقة على مدار اليوم. بعد ثلاثة أيام إكتشفت أنه ليس هناك بعثة إنجليزية وأن من يقومون بالحفر هم مجموعة تابعة للشركة الوطنية! وأننا كنا في الحقيقة نقوم بحراسة اللصوص أنفسهم!

وهل ألقيت القبض عليهم؟

ضحك قائد الجنجويد وقال: ومن سيدفع لي مرتبي إن ألقيت القبض عليهم؟

لم نلق القبض على أحد، لكننا قمنا فقط بتعديل الاتفاق! بدلا من المرتبات التي إتفقنا عليها لقاء حراسة المنطقة لمدة ثلاثة أشهر، حصلنا على نسبة من الذهب والآثار التي عثروا عليها! قمنا ببيع الذهب لكن كان صعبا التصرف في حصتنا من التماثيل والأواني القديمة، بيع الحمير المسروقة كان سهلا جدا، لكننا لم نكن نملك أية خبرة في طريقة بيع الآثار. وبعد أن طفنا بها في الاسواق دون نجد مشتريا واحدا أضطررنا لبيعها للشركة الوطنية! إهتم بها بعض السوّاح لكنهم اوضحوا لنا أن القانون حسب علمهم يمنع بيع هذه الاشياء

التي تعتبر ثروات قومية. وإنهم حتى لو أقدموا على شرائها لن يستطيعوا إخراجها من المطار، قلت لهم إننا سنتولى إخراجها لهم من المطار بل يمكننا أن نسلمها لهم خارج الحدود في أية دولة مجاورة لكنهم إعتذروا أنهم حتى من الدول المجاورة لن يستطيعوا السفر بها الى بلادهم!

بعد أن إختفى النهر وإختفت حديقة القصرخلف الأسوار العالية من بعده، وقبل ظهور الجنجويد في القصر، تعوّد السيد الرئيس على قضاء معظم وقته في غرفة مكتبه. يحاول بعث الحياة في ذاكرته الميتة من خلال الصور التي يقتفي فيها خطى الحياة في الوطن في القرن الماضي. فيرى عمال لقيط القطن يغنون في العربات الضخمة التي تحملهم من أقاصي الوطن، ويرى ريح الشمال المحمّلة بالغبار تعبر فوق سنابل القمح الواعدة، يرى الصبية يلعبون في الطرقات البعيدة في طريقهم للمدرسة. يكتشف في كل مرة ان أياد خفية تعبث بأوراقه ومقتنياته القديمة. حتى الصور كان يتم إستبدال بعضها تدريجيا بصور لا يمكن تحديد زمانها ومكانها، يظهر فيها أناس بلا ملامح يستحيل الجزم بأنهم وجدوا أصلا على ظهر البسيطة، يلاحظ أن الصور الجديدة كانت تزيل تدريجيا حواجز الزمن من ذاكرته، فتختلط الصور والأزمنة. حتى أنه يعود ليتفرّس في الصور ويقارنها بصورته في المرآة ليتأكد أن صور وضع حجارة الأساس للمشاريع المنسية. وأن غناء عمال لقيط القطن وعمّال مواسم الحصاد المنسية في السهول، وغناء الصبية في الأودية البعيدة المهجورة هي صور عهده الأول المنسي. رأى صورة غير واضحة عرف أنها لم تستبدل مثلما حدث لمعظم صوره. رأى نفسه واقفا مع رجل يرتدي جلبابا وعمامة ويضع فوق عينيه نظارة سوداء، تذكر بعض تفاصيل يوم غائم في ذاكرته، حين وفد الى القصر مغن ضرير ومعه عازف على الربابة، لم يتذكر مناسبة حضور الرجل الى القصر، ربما كان أحد الأعياد، عيد الفطر أو عيد الأضحى أو ذكرى عيد الاستقلال. فالمكان يبدو معدا لاستقبال الزوار. كان الرجل يغني بصوت ملائكي حزين فيبدو العالم كله وكأنه يشاطره أحزانه، تزرف حتى السماء قطرات المطر في الخارج! يستمع الى صوت أحد مستشاري عصر الجفاف الأول: إنها معجزة سيدي الرئيس، السماء تمطر دون وجود سحابة واحدة. هذا المغني الضرير هو

ثروة قومية سيدي الرئيس. أصدر قرارا جمهوريا بتعيينه مستشارا لشئون المطر، لم يفهم بعض مساعديه كيف يمكن إنزال المطر بالغناء، بدلا من صلاة الاستسقاء. قال أحد مستشاريه من الملتحين: سيدي الرئيس نحن نحاول تأصيل سلوك حياتنا وأسلمتها، لكن إنزال المطر عن طريق الغناء سيؤدي الى علمنة الدولة، كأننا بدلا من أن نتجه الى الله ليزيل البلاء، نتجه الى الشيطان!

في ذلك الصباح إستيقظ السيد الرئيس سعيدا على صوت بلبل يغرّد فوق شجرة الحناء! يا له من حلم! إستعاد دفعة واحدة أمجاده الغابرة، حين كان بإمكانه إصدار قرارات توصف في نشرات الأخبار بأنها تاريخية، وكانت جيوشه المدربة تحرس حدود الوطن ولا يستطيع أية إنسان أن يعبرالحدود دون علم جنوده. قبل أن يتغير كل شئ ويتحول هو شخصيا الى قلم برتبة جنرال، على يد سماسرة الشركة الوطنية، كل ما يقوم بعمله هو وضع إمضائه على قرارات جرى تنفيذها في الواقع قبل سنوات. ذات مرة بعد أن وضع إمضائه على قرار جمهوري، دفعه فضول عابر لإلقاء نظرة على الورقة التي قام للتو بوضع إمضائه عليها. رأى إسم أحد أصدقائه القدامى: اللواء عبدالرحيم نور الدين، نظر بسرعة الى أعلى الصفحة ليعرف موضوع القرار، فوجده مصادقة على حكم بالإعدام أصدرته محكمة عسكرية بحق عشرة من الضباط شاركوا في محاولة إنقلابية.

أمسك بالورقة بعيدا عن يد مندوب الشركة الوطنية الممدودة اليه، وقال بنبرة حاسمة : يجب تخفيض هذه الأحكام، كيف يمكنكم إعدام أفضل ضابط في جيشنا؟ هذا الرجل كان مفروضا أن يكون ....

قاطعه مندوب الشركة الوطنية بهدوء: بودي تنفيذ رغبة سعادتكم لكن ذلك مستحيل سيدي الرئيس لقد تم تنفيذ هذه الأحكام منذ اشهر!

عرف أنهم ينفذون الأحكام أولا ثم تعقد المحاكمات بعد ذلك! معظم المحاكمات التي رأى أجزاء منها في جهاز التلفزيون كان المتهمون فيها كلهم موتى، عرف أنهم: يستأجرون متهمين بالساعة أو يحضرون مساجين من السجن المركزي لتمثيل دور المتهمين! وكل ذلك لمحاولة تنظيف وجه النظام أمام منظمات حقوق الانسان ودحض إدعاءات تعرّض المتهمين للتعذيب.

قضى قيلولته غارقا في حزنه ودموعه على صديقه القديم عبد الرحيم، مساء كفكف دموعه، شعر بعزاء أن الرجل الذي يعرفه جيدا، قام بما هو متوقع منه، ما كان لشخص

مثله أن يقبل بما يحدث من حكومة الشركة الوطنية التي استولت على الحكم من خلف ظهره، وتركته مجرد لافتة، مجرد خيال مآتة لا يفزع ولا حتى طائرا وحيدا، للإيحاء بأن كل شئ موجود في مكانه، قبل أن يقوموا بتفكيك كل شئ، وخوفا من أية محاولة إنقلابية، قاموا أولا بتفكيك الجيش، وكانت حجتهم: لم يطلقوا طلقة واحدة سيدي الرئيس منذ عقود، منذ أن حل السلام في ربوع وطننا بسبب حكمتكم سيدي الرئيس، حتى أن بنادقهم لم تعد تطلق النار ، لا بسبب الدعاية المغرضة حول الأسلحة الفاسدة التي زعمت صحافة أحزاب عهد الفوضى أن وزير الدفاع قام بإستيرادها، أو بسبب الشائعة الكاذبة التي زعمت أن وزير الزراعة إستورد مع السماد والبذور المعالجة وراثيا ومبيدات الجراد، ذخيرة فاسدة من الصين. لكن بسبب الصدأ سيدي الرئيس!

نحن نستورد كل شئ من الصين سيدي الرئيس، حتى سراويلنا نستوردها من الصين، بدلا من أن نلبس مما نصنع، حيث العمالة الوطنية تكلفتها عالية، ولتخفيف التلوث، قررنا أن نلبس مما يصنع الصينيون، ولم يحدث أن استوردنا منهم شيئا فاسدا. لا توجد سراويل فاسدة في أسواقنا، انها إشاعات ضارة تطلقها فلول الأحزاب المنحلة سيدي الرئيس حتى أنهم يقولون أن المبيدات لا تقتل الجراد، وأن الجراد كان يشاهد منتعشا في المزارع بعد رشه بالطائرات! لأن الجراد كما تزعم الشائعة يصبح أكثر إنتعاشا ونشاطا بعد الحمّام المجاني الذي يحصل عليه من طائرات الرش سيدي الرئيس!

حين سمع صوت غناء البلبل، شعر بفرح طاغ لفكرة أن الحديقة عادت الى حضن الوطن، وربما عاد النهر أيضا! أزاح الستار بجانب فراشه قليلا حتى يرى ما يحدث بالخارج دون أن تكشفه كاميرات الشركة الوطنية. رأى البلبل على بعد أمتار قليلة من نافذته واقفا فوق علم دولة أجنبية خارج حدود الوطن!، وكان يغني بنفس الحماس والقوة التي كان يغني بها في السابق فوق أشجار الجهنمية والتمر الهندي، حين كانت تلك الأشجار تضرب جذورها في أرض الوطن وتمتص الضوء اللازم لنموها من شمس الوطن!

يا للكارثة هل أصبح بلبلي الأثير أجنبيا؟ هل أصبح البلبل عميلا لدولة أخرى؟ كيف يغني فوق علم دولة أجنبية بنفس حماسته حين كان يغني فوق علم وأشجار الوطن! إنه أول بلبل يصبح طابورا خامسا!

يشعر أنه يستعيد مع صوت غناء البلبل بعض هيبة سلطته الغابرة، يصدر قرارا جمهوريا بأن يعود البلبل ليغرّد في أرض الوطن.

قام بنفسه بطباعة القرار على الآلة الكاتبة العتيقة في مكتبه، أحضر مندوب الشركة الوطنية منذ أشهر جهاز كمبيوتر لكن السيد الرئيس لم يتمكن من التعود على العمل عليه. بدا له الجهاز الشيطاني مثل كاميرا أخرى من كاميرات الشركة الوطنية التي تحصي أنفاسه. حتى أنه كان يقوم مساء بوضع بطانية سوداء فوق الجهاز حتى لا يستطيع مراقبة تحركاته. بعد أن قام بطباعة القرار وضع إمضائه عليه ، لم يظهر مندوب الشركة الوطنية في ذلك اليوم، بحث داخل القصر عن الحارس الصغير الذي كان يساعده في إرتداء ملابسه العسكرية فلم يعثر عليه. وجده أخيرا يجلس في مدخل القصر، أعطاه القرار الجمهوري الذي بدا أقرب الى أمر قبض على طائر البلبل، طلب منه المساعدة في القبض على البلبل وإستعادته ليغني في الوطن.

قال الحارس الصغير: لا يمكننا دخول الحديقة يا سيدي، سمعت زملائي الأقدم مني يقولون إن الدخول ممنوع الى الحديقة التي تتبع الآن لدولة أخرى إلا إذا حصل من يريد الدخول على فيزا للدخول من تلك الدولة!

أثناء تجواله المسائي في الذاكرة، التي يحاول عن طريق إعادة النجوم الى أماكنها القديمة فيها، إعادة ترتيب الوقائع القديمة التي إختلطت في ذاكرته مع صور عصور مختلفة. رأى أثناء بحثه، قفص عصافير في إحدى غرف القصر.تأكد أنه لم يكن يحلم وقضى النهار التالي كله بحثا عن القفص حتى عثر عليه، لم يتذكر صاحب القفص، إستخدم لعبة النجوم فرأى في ضباب الذاكرة سيدة جميلة تجلس في بهو القصر فيما عندليب حزين يغني داخل القفص! لم يتعرف على السيدة الجميلة ولم يتمكن من تحديد الزمان الذي وجدت فيه. لكن الصور وإشارات الضوء كانت تشير الى زمان سعيد، فقد رأى النهر يغمر بمياهه الطينية الجروف ومزارع الموز، وعصافير الحديقة تغني، ورأى النجوم تختفي خلف سحابات خريف كان يغرق الوطن كله في موسم الدميرة.

في الصباح التالي، وجد الحارس الصغير أمام بوابة القصر، أشار له بيده، فتبعه الشاب الصغير الى مكتبه، شرح له خطته لإستعادة البلبل ليغرد في أرض الوطن، وعد الشاب الصغير بمنحه وساما وترقية خاصة اذا ما نجح في إستعادة البلبل، كما سحب درج مكتبه وتناول عدة وريقات مالية دفع بها للشاب الصغير، لم يشأ الحارس الشاب إحراجه، فالأوراق المالية كانت خارج التداول منذ سنوات، قامت الشركة الوطنية خلالها بتغيير العملة الوطنية عدة مرات.

وضع الحارس الأوراق المالية في جيبه ووعد السيد الرئيس خيرا. وأوضح:

لن يمكنني التسلل الى الحديقة الا ليلا حين يخلد حراسها للنوم، ولا أدري إن كان بإمكاني العثور على البلبل مساء. وصف له السيد الرئيس الأشجار التي إعتاد البلبل أن يغرد ويبني أعشاشه فوقها. ثم أعطاه القفص ليضع البلبل فيه.

في الليلة الاولى لم ينجح الحارس في الدخول الى الحديقة، شرح للسيد الرئيس أن الحديقة كان بها إحتفال إمتد لوقت متأخر من الليل، سأله الرئيس: من كان هنالك؟

قال الحارس: كان هناك غرباء ، كانوا يرقصون طوال الليل، وشارك في الرقص معهم عدد من رجال الشركة الوطنية سيدي الرئيس!

قال السيد الرئيس مندهشا: كيف يرقصون مع تلك اللحي الطويلة؟!

إبتسم الحارس الشاب وقال ببساطة : في الليل تختفي لحاهم سيدي الرئيس، يتركون اللحي في سياراتهم حين يكون هناك إحتفال تقيمه إحدى الدول الأجنبية الكثيرة التي تقاسمت الوطن!

لكن السيد الرئيس كان يريد أن يفهم لماذا إشترى الغرباء حديقة القصر؟

قال الحارس: سمعت أنهم ينقبون فيها عن الذهب أو معادن أخرى أغلى ثمنا، كما أنهم أبقوا على الجزء الذي كانت تقام فيه الاحتفالات على نفس حاله، معروضا للإيجار، يقوم كل راغب في إقامة حفل أو مهرجان بإستئجار الحديقة سيدي الرئيس!

في اليوم التالي أحضر الفتى البلبل، عرف السيد الرئيس أن الحارس نجح في مهمته بمجرد أن إستيقظ على صوت غناء البلبل، يغرّد في الوطن، شعر بأنه يستعيد زمام سلطته الغابرة. ويستعيد كل صور ذاكرته التي مسحت منها تاصيل عهود ما بعد رحيل المستعمر الانجليزي. يجلس على مكتبه بنشاط، يقرأ آخر تقرير وصل الى مكتبه. رغم أنه مضى عليه أكثر من عقدين من الزمن، لكنه بدا وكأنه أرسل اليوم. كان آخر تقرير من اللجنة التي أمر بتشكيلها من عدد من الخبراء للبحث عن النهر المختفي وإعادته ليعبر الوطن من أقصاه الى أدناه.

قال: أنا مستعد تماما لممارسة سلطتي القديمة، شئ واحد فقط بقى لأستعيد سلطاتي كلها: أين الوطن!

لكن غناء البلبل تناقص، رغم أن السيد الرئيس كان يطعمه بنفسه من بقايا فتات الخبز وقطع البسكويت، وبعد مرور ثلاثة أيام توقف البلبل نهائيا عن الغناء، لم يجد السيد الرئيس شخصا يستنجد به الا الحارس الصغير. قال الحارس إن البلبل يشتاق لحريته، إنه يغني للحرية. لا يستطيع المسجون أن يغني

لكننا إن أطلقنا سراحه، قال السيد الرئيس، مستوحيا عبارة الحارس الصغير: سيهرب ويغادر حدود الوطن! لا يستطيع المسجون أن يغني!

أوضح الحارس: أفضل ان يكون خارج حدودنا ونسمع غنائه، بدلا من أن يكون بجانبنا ولا نسمع غنائه.

فكر السيد الرئيس قليلا، ثم أمر الحارس أن يطلق سراح الطائر، إستدار الطائر في الهواء عاليا، لا أثر للجدران في الهواء، ثم هبط وبدأ يغني مرة أخرى فوق شجرة التمر الهندي، لم يجد السيد الرئيس فرقا ، فالصوت الحالم كان يملأ الهواء، دون أن يميز بين هواء الوطن وهواء البلد المجاور. كان غناء الطائر يعيد الحياة الى الوقائع الخامدة ، فتنهض ذكريات القرن الماضي في ذاكرته ويتلمس العالم العائد من حوله خطاه المتعثرة على خيوط ضوء الفجر الوليد.

في مقر الشركة الوطنية، في مبنى السكرتارية الملاصق لمكتب الجنرال رئيس الشركة الوطنية، يجلس في مكتب جانبي رجل أنيق اسمه نداء، تفوح منه رائحة عطر كثيفة، تطفو غرفة مكتبه في رائحة بخور خشب الطلح. مع طقم الأثاث الايطالي وستائر الدانتيلا الحمراء، لا ينقص غرفة المكتب ذات الاضاءة الخافتة، سوى سرير كبير مفروش بملاءة من المخمل الأحمر وثوب القرمصيص، لتصبح غرفة عروس ليلة زفافها. المستشار نفسه يبدو جزءا من ديكور الغرفة، مستشار رئيس الشركة للشئون الاجتماعية. لواطي طيب لا يميل لإفتعال المشاكل، بل حلها، يرتدي قميصا أصفرا خفيفا وربطة عنق حمراء. وجهه مثل وجه طفل كبر فجأة دون المرور بمراحل العمر العادية. أنفه ينقصه بعض الحدة ليصبح مثل منقار طائر أبو قرن. أذنه اليمنى أقصر قليلا من اليسرى بسبب عجلة النمو. شعره لامع بفضل الدهان ووجهه يشع نظافة. مهمته الاعداد لسهرات جنرال الشركة الوطنية، وإختيار رفاق تلك السهرات الذين يقومون بتسلية الرئيس من موسيقيين ومغنيين وشباب يتمتعون بالوسامة وخفة الظل، يؤنسون السيد الرئيس بحضورهم، بأكاذيبهم وحكاياتهم، اضافة للنساء. كان مسئولا ايضا عن جمع معلومات عن الفتيات الجميلات كرفيقات انس أو كزوجات محتملات. أثناء عمله يؤدي خدمات صغيرة لأصدقائه ومعارفه وكل من يرغب في شغل وظيفة ما. أسهل طريق لذلك لا يكون بإرسال السيرة الذاتية وشهادات الدراسة والخبرة. يقوم فقط بوضع الشخص المعني في إحدى سهرات الجنرال. هناك شرط وحيد: أن تكون وسيما حسن المظهر، وتخضع للتدريب الذي يحدده لك، والا سيرسلك الى الجنرال الآخر كما كان يهدد بنفس نعومة صوته. يقوم بعمل تدريب سريع قبل أن يدفع بك الى سهرة الجنرال. يلقنك كيف تكون ضيفا لطيفا وكيف يمكنك دخول قلب الجنرال وعقله خلال ثلاث ساعات هي مدة السهرة، كيف تخطف الأضواء؟ ماهي النكات التي يحبها الجنرال.

أول نصيحة يقدمها لك: لا تتحدث أبدا في السياسة، لا يمارس الجنرال أية سياسة بعد الثالثة بعد الظهر، عدا سياسة البهجة والحب. يقول نداء مازحا للباحث عن الوظيفة الذي يحضر حسب الموعد المحدد ذلك الصباح: يريد الجنرال أن ينسى، يحمل الوطن فوق كتفيه طوال النهار، ينزل الوطن من فوق رأسه عند الثالثة ويحمل المرأة التي أرشحها له، ويريد أن يرى حواليه شبابا رائعين، ويستمع الى نكات جديدة وغناء جميل. الجنرال يرهق نفسه كثيرا من أجل الوطن ومن حقه أن يحصل على بعض الراحة والتسلية حتى يتمكن من مواصلة خدمة الوطن.

يقول مرشح الوظيفة العامة عابثا: من حسن حظه أن الوطن لن يرهق كتفيه كثيرا بعد الآن، بعد إنفصال بعض أجزائه! ربما سيرهقه حمل نساء الثالثة بعد الظهر أكثر من حمل الوطن!

يضحك نداء، يقول للمرشح الجديد: إن حاولت أن تسخر مرة أخرى من الجنرال سأرسلك لوظيفة أخرى مع الجنرال الآخر!

يقول المرشّح بإهتمام: من هو الجنرال الآخر؟ معتقدا أنه ربما وقع إنقلاب ما، أو إنفصل جزء آخر من الوطن، يحكمه جنرال آخر، يتعين أيضا من أجل العمل معه المرور بنفس مكتب العمل العاطفي هذا. يجب أن يسمى مكتب العمل الشاعري هذا في هذه الحال: مكتب العمل الفدرالي!

يقول نداء: الجنرال الآخر، قائد الجنجويد!

يبتسم المرشح ويقول: وماذا يمكنني أن أعمل مع قائد الجنجويد؟

يقول نداء: ما رأيك في وظيفة سكرتير؟ تقرأ له الرسائل والبريد الالكتروني وترد عليها، تكتب له عرائض الاحتجاج وطلبات زيادة الأجر. تعطيه نصائح حول الأساس القانوني لسبي النساء، هو أيضا مثل جنرالنا يحب النساء، جنرالنا يسبي النساء بطريقة ناعمة. والجنرال الآخر طريقته خشنة قليلا، لكن النتيجة واحدة.

يقول المرشّح: أحمل شهادة دكتوراة، أليس ذلك كثيرا الى حد ما على وظيفة سكرتير يقرأ الايميلات ويعطي نصائح حول سبي النساء؟

ضحك نداء وسحب درج مكتبه وقال: هل تصدق أن رئيس الجمهورية يقوم بذلك الان، ويقوم به متطوعا! شهادة الدكتوراة ليست صعبة، أنا ايضا أحمل واحدة، سحب من درج مكتبه أول ورقة عثرت عليها يده، رأى المرشح إسم نداء مكتوبا على شهادة الدكتوراة، لم يصدق عينيه في البداية.

هل هذه دكتوراة فخرية؟

ضحك نداء بغنج وقال: هل ستكون دكتوراة فخرية في اللواط!

ينتبه عندها المرشّح لمساحيق التجميل في الوجه، وللسلسلة الذهبية حول العنق، والأظافر النظيفة الناعمة. يتذكر أنّ الشخص الذي أرشده ليتصل بنداء، رد له مازحا حين سأله عن فرصه للعثور على وظيفة: كم يبلغ طول عضوك الذكري؟ دهش الباحث عن الوظيفة وضحك ، حسب أن صديقه يمزح كعادته، قال: ما علاقة طول عضوي الذكري بالوظيفة؟ أم أن هناك وظيفة فحل مستورد لتحسين النسل بعد الظهر؟

قال محدثه بجدية: بالعكس يتوقف نوع كثير من الوظائف هناك على طول عضوك الذكري! ان كان عضوك الذكري قصيرا ربما ستكون فرص عثورك على وظيفة ممتازة قصيرة جدا. ان كان عضوك الذكري طويلا يمكنك أن تختار ما تريد من قائمة من الوظائف العليا! يمكنك أن تصبح نائبا للجنرال اذا حقق طول عضوك الذكري رقما قياسيا! إما إذا حقق طول عضوك الذكري رقما قياسيا جديدا فربما تحصل على ترقية استثنائية وتصبح جنرالا!

لكنني لم أدخل الكلية الحربية، كيف سأصبح جنرالا؟

ومن الذي دخلها؟ جنرال الشركة الوطنية لم يدخل الكلية الحربية ولا حتى لزيارة شخص ما، اما الجنرال الثاني قائد الجنجويد فقد دخلها مرة واحدة ليس بغرض الدراسة بل لإخماد إعتصام قام به الطلبة وإعتقال قادة المتعصمين!

حسب المرشح أن محدثه يمزح، لكنه كان مثل غريق يتعلق بقشة الأمل. فكر قليلا وقال: وهل سأقوم بكتابة طول العضو في إستمارة التقديم للعمل؟

ضحك صديقه الخبير في ألاعيب الوظائف وقال: ستتذكر كلامي حين تبدأ في التدريبات اللازمة قبل أن يقدمك السيد نداء للجنرال!

يحاول طالب الوظيفة أن يداري إرتباكه، وأن يستعيد المبادرة، يتذكر حاجته للوظيفة. يخرج المظروف من جيبه ويمده من أسفل منضدة نداء، معتقدا أن ذلك سينقذه من طلبات أخرى. يضع الدكتور المظروف في جيبه. ويقول: رائع، تسلمنا الجزء الأول نقدا وبقية الحساب أثناء التدريب! يرتبك المرشح للوظيفة من كلام نداء حول بقية الحساب اثناء التدريب، يتذكر حكاية طول العضو.

هل لديك وقت للتدريب اليوم؟

يقول المرشح: اليوم، غدا. أنا عاطل عن العمل!

يأخذه نداء الى غرفة جانبية ملحقة بمكتبه، تصبح فيها رائحة حطب الطلح أكثر كثافة، ويصبح الضوء خافتا أكثر، تتناثر في المكان بين حبّات رذاذه موسيقى خفيفة لها همس أمواج لطيفة هادئة أو ملمس زهور نائمة. يشعر طالب الوظيفة بالخوف من شاعرية المكان، يفكّر: أخشى أن يجبرني على ممارسة اللواط معه! يا للكارثة، يا للورود التي تفرش طريق العمل والحياة في مملكة الجنجويد: لواط عند جنرال الشركة الوطنية وإغتصاب عند الجنرال الآخر قائد الجنجويد! يستجمع شجاعته ويقول لنداء: ألا يمكننا عمل التدريب في مكتبك، أنا لا أحب الأماكن المظلمة!

يقول نداء: من الأفضل أن تحبها! هذا جزء من التدريب للحصول على الوظيفة، كيف تريد أن تصبح وزيرا ثم تحب الضوء! ما أن تظهر في الضوء حتى يقال أنه فاسد، من اين له بهذا البيت الفخم، حين جاء للوظيفة لم يكن لديه ولا حتى دراجة، الان يغادرها وأمام بيته اسطول من السيارات الفارهة. حين يكون هناك ضوء ساطع لن ترى شيئا، هل تستطيع أن تنظر الى الشمس؟ حين يكون الضوء خافتا، تشعر عيناك بالراحة، تعملان بطاقتهما القصوى، تكون في مأمن من عيون الناس وترى كل شئ في الوقت نفسه، نحن جنود الوطن، يجب أن نعمل بعيدا عن الأضواء! كما أن الجنرال لا يحب الأضواء. إذا كنت تحب الأضواء فعرض الجنرال الآخر لا يزال موجودا، كل العمل هناك في الهواء الطلق. حتى الحب هناك لا يحتاج لأماكن مظلمة، المساء يبدأ هناك عند الثانية عشرة منتصف النهار!

يفكر الرجل قليلا، يتذكر أطفاله، وديونه ومصاعب الحياة الأخرى، ويبدأ يشعر انه ايضا يريد أن يصبح ظلاميا! يكتشف بدايات حبه السري للظلام! ماذا إستفدنا من الضوء؟ يقول محاولا إخماد أصوات الاحتجاج التي تتصاعد في رأسه: قضيت أكثر من نصف قرن في

الضوء دون أن أحرز أية تقدم فلماذا لا أجرب الظلام؟ يمد يده آليا ليتحسس عضوه الذكري، ليتأكد أن طوله سيكفي على الأقل لوظيفة وكيل وزارة.

يقول نداء موضحا طبيعة عمله لزواره: حينما لا تكون هناك حرب، أكون أنا موجودا، أنا مثل حمامة سلام، يبدأ عملي بعد توقيع إتفاقيات السلام، وقبل عودة المتمردين للغابة مرة أخرى، بسبب عدم إلتزام الشركة الوطنية ببنود إتفاق السلام. حين تبدأ الحرب مرة أخرى يكون هناك خيارات أخرى، يكمل الاخ رئيس الشركة طاقم نسائه من نساء الشهداء.

نداء كان نشطا، يشارك في كل الحفلات العامة ومهرجانات الغناء، بحثا عن ملكات جمال يقدمهن في بلاط الشهداء، يمكن دائما إيجاد مكان شاغر للملكة الجديدة. الملكة الأقدم يتم إحالتها الى قصر الزوجات السابقات، تقوم برعاية ابنائها ان كان عندها ابناء او تبقى في الانتظار. جاءت سميرة تبحث عن شقيقها، ذهبت جدتها الى القصر تحمل إلتماسا كتبته سميرة، يقال ان الرئيس يقيم هناك. رئيس القصر الجمهوري مثل شبح، وجوده غير مؤكد لم يره أحد منذ القرن الماضي.يظهر أحيانا في جهاز التلفزيون وهو يقص الشريط إيذانا بإفتتاح طرق جديدة أو مشاريع للتنمية. بلاط الشهداء أو مقر الشركة الوطنية، هو القصر الحقيقي للسلطة. مثما حدث مع جدتها في القصر الجمهوري، منعها عسكر الجنجويد الذين كانوا ينتشرون حول المكان من الدخول. طلبوا منها ان تقابل مكتب السكرتارية الذي يقع مدخله في ركن الفناء. حين وصلت الفتاة الى مكتب نداء كان شخص ما يجلس معه، يراجع بعض المستندات التي قدمها له نداء.

قال الرجل مبتسما: شهادات الرجل ممتازة هل يستحق وظيفة كبيرة؟

قال نداء: شهادات خبرة ممتازة وتعليم عالي، لكن طول قضيبه لا يؤهله ولا حتى لوظيفة شرطي في الشرطة الشعبية!

ضحك الرجل، ومن خلال ضجيج صوت ضحكاته، رأى نداء أجمل فتاة تقع عليها عيناه، تدخل الى مكتبه! تسير ببساطة من لا يعرف قدر جماله المهول. تسير وكأنها تطفو في هواء الغرفة، كأنها لا تسير بحذر لتتحاشى الأثاث المكدس في غرفة سكرتير الشئون الاجتماعية، بل أن الأثاث هو الذي ينزاح جانبا ليفسح لهذه النسمة الربيعية لتعبر بسلام. شهق نداء أمام الجمال الخارق، أزاح الورق من أمامه وألقى به آليا دون أن ينظر إليه، في سلة المهملات وودع محدثه قائلا: لدينا طلبات عمل مستعجلة لا تضيع وقتي أكثر من ذلك بهؤلاء الدكاترة الذين لا يصلحون لأي شئ.

ترك كل ما في يده، وتفرغ للعمل. أشار للفتاة لتجلس في المقعد الذي أخلاه زميله بجانبه، وسألها بصوته المرتجف من هول المفاجأة كيف يستطيع أن يخدمها؟ ناولته العريضة دون أن تنبس بكلمة واحدة. كان بوده أن ينحنى ويقبل يد جلالتها، وقف بجانبها بإنتظار أن تصدر أية أوامر ليقوم فورا بتنفيذها، معتقدا أنها تبحث عن وظيفة. إنتبه بعد قليل لوقوفه بجانب الملكة بعيدا عن مكتبه وإنتبه لها وهي بإنتظار أن يقرأ ورقتها. أمسك بالعريضة وقرأها بنظرة واحدة من أعلى الورقة الى أسفلها، كأنه رآها من قبل. شعر بنفسه يستعيد بعض تماسكه الهش، وأنه يستطيع أن يفكر ويبدأ في إلقاء الطعم الى الضحية الجديدة، التي سيقدمها الى الجنرال في طبق من ذهب، جلس الى المكتب وقال: لقد فهمت الأمر لكن الموضوع يبدو في غاية التعقيد.

أحضر الساعي زجاجة بيبسي كولا، جلست الفتاة الجميلة وشربت قليلا من زجاجة البيبسي كولا فيما بدأت الأمطار تهطل في الخارج!

قال نداء: شقيقك متورط في الحرب ضد الدولة مع الحركات المسلحة، انها تهمة خطيرة، اخشى ان تكون فرص نجاته قليلة.

رب صدفة خير من ألف جولة، كان نداء يتحدث مع نفسه، طوال عدة أسابيع لم يعثر على إمرأة تناسب نزوات سيده، لا يوجد شهداء، آخر الشهداء لم تعجب أراملهم السيد الرئيس، كن سيدات طيبات، ربّات بيوت، جمالهن المتواضع ضاع في زحمة الاخلاص لحياة زوجية شاقة، وفي تربية الابناء وصنع الخبز ومقابلة نزوات أزواجهن المتقلبة.

إنتهى جنرال الشركة الوطنية حين رأى وجوههن الجافة، رغم أطنان مساحيق التجميل وأجسادهن الضامرة، الى القول: الآن فهمت لماذا هرب أزواجهن الى الحرب! كان يؤمن أن الحياة تستحق أن تعاش، وأن الذهاب الى الحرب هو الخيار الأخير، حين يصبح صعبا

استمرار الحياة من دون موت، رغم أن حكومته ستشن الحرب في كل مكان، فقط حتى لا يزاحمها أحد في سلطتها.

كان نداء على وشك أن يفقد وظيفته وسمعته كمكتشف للجمال، حين جاءت سميرة، في فصل الخريف لا يوجد شهداء. تتوقف الحرب في كل مكان. يستتب السلام بالمطر، تغرس كل الآليات والعربات الحربية في الوحل، يبق كل جندي أو متمرد في مكانه حتى يحل موسم الجفاف. يتفرغ بعض الجنود والمتمردون لزراعة مساحات صغيرة لغذاء اطفالهم من الذرة. في اثناء موسم السلام المائي يختلط الناس لا يستطيع احد أن يفرق بين الجنود والمتمردين، يساعدون بعضهم أحيانا في الزراعة، يقترضون بذور الذرة من بعضهم دون ان يهتم اي منهم الى ان جاره هو عدوه حين تقلع السماء. يكتشف جنود الجيش الحكومي دون ضجيج انهم في الحقيقة ليس لديهم اية مشاكل مع من يحاربونهم! ان هذه مجرد مهنة، تستأجرهم السلطة لقتل جيرانهم وأهلهم!حين تقلع السماء يتركون حصاد المحصول لأولادهم ويستأنفون الحرب مجرد أن تصلهم التعليمات. يضعون معاولهم جانبا ويمسكون بتلابيب بعضهم البعض.

يتزوج البعض في فترة الهدنة المطرية الاجبارية. ويذهبون لزيارة أقاربهم في القرى البعيدة الغارقة في المطر. يقدمون واجب العزاء لاهالي من ماتوا في موسم الجفاف ويزورون كبار السن في القرية ويتفقدون الدمار الذي أحدثته طائرات الانتينوف المغيرة على المدارس والبيوت.

قال نداء: يمكنني أن أحاول ايجاد مخرج لشقيقك ان لم يفت الوقت، المشكلة أن أسرى العمليات لا يتم تسلمهم من قوات الجنجويد ، تعقد لهم محاكم عسكرية وفي الغالب يتم تنفيذ الأحكام حتى قبل صدور حكم المحكمة!

حتى يمكننا عمل شئ لمحاولة إنقاذ حياة شقيقك يجب أن نتحرك بسرعة، سأحاول بسرعة عمل موعد لتقديمك للجنرال. أين تقيمين؟ وقبل أن ينتظر ردا قال: هناك إجتماع مع الجنرال مساء الغد، هنا في مقر الشركة على شرف إستقبال عدد من موظفي الشركة الجدد، إن كان بإمكانك الحضور ستكون فرصة جيدة لأقدمك له ونرى إمكانية أن يساعد في إنقاذ حياة شقيقك.بإمكاننا إستضافتك في بيت الضيافة التابع للشركة الوطنية أن كنت تسكنين في مكان بعيد. ستحتاجين للحضور كثيرا لمقابلة الجنرال وأشخاص آخرين للمساعدة في إطلاق

سراح شقيقك ومن الأفضل أن تسكني لحين الفراغ من هذا الأمر في مكان قريب.مد لها يده بورقة وقلم: أكتبي هنا رقم تليفونك وعنوانك، سأرسل لك سيارة غدا في موعد الاجتماع.

بعد أن عاد البلبل يغرّد في حديقة القصر التي باتت تقع داخل حدود دولة اخرى، إستعاد السيد الرئيس معنويا بعض مظاهر سلطته الغابرة. عاد يذرع غرف القصر مثلما كان يفعل في الايام الخوالي، حين كان بالإمكان تأمل غروب الشمس فوق النهر العتيق فيما يتلاشى في روعة المشهد صوت آخر زخات رصاص يطلقها حرسه الجمهوري بعدإلقاء القبض على ضباط آخر محاولة إنقلابية حاولت إحتلال القصر الجمهوري، يا لروعة ذاك الزمان! يشعر بالحنين حتى لضباط جيشه الذين تورطوا في محاولات إنقلابية ضده! كل من يستيقظ مبكرا يستطيع ان يصل بقواته خلال دقائق الى القصر.

الان لا يبدو في عرين السلطة المهجور هذا سوى مسن يقضي شيخوخة مريحة في دار للمسنين لا يوجد فيها مسن غيره. يحضر الطبيب مرة كل اسبوع لمعاينته، لا يعطيه الطبيب أية إنطباع بأنه يملك سلطة ما، يلقي حقيبته بإهمال على الكنبة الزرقاء في بهو القصر ، ويذهب الى المرحاض ، يتبول واقفا دون حتى أن يغلق باب المرحاض ثم يعود وهو يصفّر لحنا سعيدا ينثره بنفس الاهمال الذي ينثر به بوله في المرحاض، فتختلط عدة مقطوعات لحنية في غمرة حماس إستهتاره الموسيقي. يقوم بتشغيل جهاز التلفزيون، يمسك بجهاز التحكم في التلفزيون ويقوم بالتقليب في القنوات الفضائية كأنه يبحث عن شئ ما. قبل أن يسحب مقياس ضغط الدم من حقيبته بدون إهتمام،يجلس بجانب السيد الرئيس وهو لا يزال ينظر الى جهاز التلفزيون ويمد يده آليا بالشريط الضاغط بإتجاه يد السيد الرئيس، فيرفع الرئيس كم جلبابه ويمد يده. عندها فقط تلتقي نظراته بنظرات السيد الرئيس، يندهش قليلا كأنه يقيس ضغط دم المريض الخطأ ثم يقول: لا توجد مباريات كرة مهمة اليوم، تدهورت كرة القدم مثل كل.. ينظر حواليه وينسى ما كان يريد قوله. يقوم بعملية قياس الضغط بهمة

من قام بذلك أكثر من مليون مرة. لا ينظر حتى جيدا نحو مؤشرات الجهاز، كأنه يقرأ من الذاكرة. جميع المرضى يشكون نفس الأعراض، رئيس الجمهورية وأقل شرطي رتبة في الوطن لديهم تقريبا نفس ضغط الدم. كانت لديه إهتمامات قديمة كنسها الاهمال الى النسيان لعمل دراسة حول العلاقة بين شخصية الإنسان ودقات قلبه، قام بتسجيل ملاحظات كثيرة حول مرضاه، لكنه فقد الاهتمام تدريجيا بالموضوع بسبب مشاكل الحياة. حين كان طالبا كان يبدي اهتماما اكثر بالعالم من حوله. كان يرغب بقوة في عمل أبحاث كثيرة، كان يجمع أنواعا من الحشرات التي يلاحظ أنها تقضي على يرقات البعوض الذي ينقل مرض الملاريا، أملا في تطوير سلاح بيولوجي يقضي على المرض الذي كان يعتقد أنه أحد اهم اسباب مشاكل الوطن. وكان يشارك في قوافل صحية لمساعدة المرضى الفقراء تسيّرها بعض النقابات والمنظمات الخيرية التي كان ناشطا في العمل معها. بعد تخرجه شارك في إضراب ضد السلطة الوليدة آنذاك، سلطة جنرالات الجيش ورأسماليي الشركة الوطنية. قضى أشهرا رهيبة في أحد بيوت الاعتقال السرية مع مجموعة من رفاقه. تعرضوا فيها للتعذيب ونفذ فيهم حكم إعدام وهمي عدة مرات، كان يؤخذ مع رفاقه الى الخارج ويقرأ عليهم أحد العسكر حكم الاعدام الذي اصدرته بحقهم محكمة عسكرية. وأن التنفيذ سيتم الان. ثم يربطون الى أعمدة خشبية وتتخذ فرقة الاعدام وضع الاستعداد. وفجأة يتعالى صوت زعيق آلة تنبيه سيارة قادمة، يعطي صوتها بعض الأمل في إحتمال تأجيل الحكم او إلغائه، وحين تتوقف السيارة، يستمعون بأنفاس لاهثة الى أصوات حديث هامس وتحية عسكرية، قبل أن يتم إعلامهم بتأجيل تنفيذ الحكم. يعاد المعتقلون الى زنزاناتهم. حين خرج من السجن كانت رغبته في تغيير العالم قد تراجعت، كان هو الذي تغير، تراجع ليتقوقع في دواخله، يحاول إستعادة شعوره بالأمان، عن طريق ردم كل الثغرات التي تسلل منها الخطر الذي هدد حياته.

يدفع بجسده قريبا قليلا من السيد الرئيس ليضع سماعته فوق صدره، يستمع بسماعته الى دقات قلبه الواهنة، تشبه دقات بندول ساعة قديمة. يقوم بتفريغ الهواء وفك شريط الجهاز من يد السيد الرئيس، ويقول: هذا قلب قوي سليم، إنها التربية العسكرية القديمة سيدي الرئيس. الآن معظم مرضى القلب من العسكر، ما أن يكمل الواحد منهم الكلية الحربية حتى ينسى كل النظام الذي تربى عليه، لا يكلف نفسه ولا حتى بالمشي قليلا كل يوم، يستخدم سيارته حتى لو كان يريد الذهاب الى المرحاض! والنتيجة تتضخم أجسادهم وتمتلئ شرايينهم بالشحوم الضارة.

قال السيد الرئيس: هل لديك مرضى من ضباط الجيش؟

إنتبه الطبيب الى أنه تجاوز حدوده في الكلام. نظر حواليه وقال: لقد أغلقت عيادتي الخاصة منذ أن عملت مع الشركة الوطنية. كما أنني منذ إصابتي بالربو لم اعد اقوى على العمل كثيرا.

حين لا يكون الطبيب متعجلا، يغريه بالجلوس قليلا ، يستمتع بوجود شخص ينتمي لعالم ما خلف أسوار القصر. عالم بات بالنسبة له مثل أحلام لم تتحق يوما، مثله مثل النهر الذي كان يعبر أمام حديقة القصر في ساعات الأصائل، حاملا معه عبق رياحين أزمنة منسية لم تكن لتوجد الا في ذاكرته المثقلة بأخطاء الأزمنة السعيدة. يبحث عن مدخل مناسب يحاول به إقتحام ذاكرة الطبيب، الذي كان واضحا من حذره انه لا يريد ان يتحدث كثيرا، لابد ان مندوب الشركة الوطنية يحذره من الإفشاء بأية أسرار او أخبار خارج نشرة الأخبار الرسمية التي يشاهدها كل مساء. لا يصيبه اليأس من تهرب الطبيب من الاجابة على اسئلته. يقبل الطبيب مترددا دعوته لشرب القهوة، يعد السيد الرئيس القهوة بنفسه، يقول الطبيب ألا يمكنك إستدعاء الطبّاخ ليعد لك القهوة. يرد السيد الرئيس : لم يعد الطباخ يقضي الليل هنا كما كان يفعل في الزمن الماضي، بالنسبة لي استمتع جدا بعمل الشاي والقهوة وأحيانا أعد وجبة خفيفة بنفسي. في الغالب حين أعد كوب قهوة واحد يكون ذلك أكثر عمل مفيد قمت به خلال يوم كامل! يبتسم الطبيب ويبدأ النظر في ساعته. يجد نفسه بعد مغادرة الطبيب جالسا أمام جهاز التلفزيون.

لا جديد في نشرة الاخبار، السلام مستتب في ربوع الوطن، المواطنون السعداء يرقصون في الشوارع بعد نجاح الموسم الزراعي، الجراد طاردناه بطائرات الرش حتى غادر حدود الوطن، يا للكارثة! ينتبه كل مساء الى أنه سبق له سماع نفس نشرة الاخبار هذه في القرن الماضي! حين كان هناك نهر يشق الوطن من جنوبه الى شماله، حين كان بإمكانه سماع الوطن كله يغني في ساعة القيلولة. حين كان ضباطه يدبرون إنقلابا عسكريا كل ساعة، فقط لمكافحة ملل أمسيات الخمور المحلية الرديئة، والحر القاتل في الساعة الثالثة بعد الظهر، حينما يصل كل شئ الى درجة الغليان. يتحول البيض الذي تعرضه للبيع نسوة مسنات في الأسواق النائية الى بيض مسلوق، وتتحول الخضروات الى مسحوق أخضر، واللبن المجفف الى رماد، حتى أنه أعلن ذات إنقلاب عسكري تم أثناء القضاء عليه إيقاظه مرتين: ألا يستطيع الانسان أن يخلد للنوم لمدة نصف ساعة في هذا الوطن؟ دون وقوع إنقلاب أو كارثة ما!

فجأة رأى وجها يعرفه في جهاز التلفزيون، لم يشعر بأية خوف وهو يصرّح بصوت عال: أنا أعرف هذا الرجل لكنني لا أذكر اسمه! هل كان أحد مستشاري العصر الأول للجفاف، حين كانت ردهات القصر وغرفه تعج بالمستشارين الذين يملكون حلولا سحرية لمشاكل لم توجد بعد.

اشتكى للطبيب إنه لا يعرف شيئا عن أخبار الوطن، تصنّع الطبيب الدهشة قبل أن يقول: لكن الأخبار تصنع هنا عندك سيدي الرئيس!

دهش السيد الرئيس ليس فقط لأنه يسمع هذه العبارة للمرة الأولى منذ القرن الماضي، ولكن لأن الطبيب أشار بيده حين قال تصنع الأخبار الى حديقة القصر التي باتت الآن خارج الوطن!

توقف الطبيب وهو يجمع حاجياته ثم قال بحذر، الاخبار كلها موجودة الآن على شبكة الانترنت!

قال السيد الرئيس: سمعت عنها لكنني لا أستخدمها أبدا!

تبسّم الطبيب وهو يقول: رئيس الجمهورية ليس لديه إيميل أو حساب في تويتر!

قال السيد الرئيس : ما هو تويتر ؟ هل هو بنك لأفتح فيه حسابا؟

قال الطبيب وهو يتلفت حواليه حذرا شاعرا بأنه أرتكب خطأ ما:

يمكنك أن تغرّد هناك!

ضحك السيد الرئيس للمرة الأولى منذ ربع قرن وقال: في الزمن الذي أعرفه كانت البلابل تغرّد! هل أصبح الرؤساء الآن أيضا يغرّدون؟ وأين؟ في البنوك!

عرف الطبيب أنه ربما تجاوز الحد المسموح به، فتعلل بمواعيد كثيرة وأن عليه الذهاب.

لكن السيد الرئيس أصر على معرفة المزيد.

كيف سيمكنني أن أغرّد؟ هل سأحتاج أنا أيضا الى الهروب من قفص القصر الى حديقة خارج الوطن لأغرّد من هناك؟

بدا الطبيب مستغرقا في التفكير كأن الفكرة تعجبه، ثم همس قائلا. هل جهاز الكمبيوتر هذا موصول مع شبكة الانترنت؟

قال السيد الرئيس: لم يحدث لي إستخدام هذا الجهاز الا مرة واحدة قبل أكثر من عام حين أحضره شخص ما ثم حاول تلقيني كيفية استخدامه في الكتابة وحفظ ما اكتب عليه كما شرح لي. كنت أحب آلتي الكاتبة وحين تعطلت طلبت إصلاحها فأخذوها وأرسلوا هذا الجهاز ، من تعوّد على قضاء اكثر من عشر ساعات يوميا في قراءة التقارير الورقية وكتابة تعليقاته على الآلة الكاتبة يصبح صعبا عليه أن يعتاد على التعامل مع هذا الجهاز العجيب!

قال الطبيب: إنه ليس عجيبا، الآن يستخدمه الناس في كل مكان في العالم، للدخول الى شبكة الانترنت، وقراءة الاخبار والتواصل مع أشخاص آخرين في أي مكان في العالم ، يمكنك أيضا الحصول على برامج للتسلية او التعلم او المشاركة في مواقع عالمية اذا نشرت فيها اية تعليقات او اخبار يمكن ان يشاهدها الناس في العالم كله!

بدت الفكرة جيدة، إنكفأ الطبيب أرضا أسفل المكتب لفحص جهاز الكمبيوتر للتأكد من أنه متصل مع شبكة الانترنت

علّق السيد الرئيس باسما: يمكنك إصلاح كل شئ إذن!

في اليوم الأول قضى السيد الرئيس وقتا طويلا بعد أن علّمه الطبيب كيفية البحث في شبكة الانترنت. بحث أولا عن النهر فوجد نفسه يغوص في متاهة تقارير وأخبار كانت تزيد الوضع غموضا في رأسه كلما توغل فيها. رأى الجدوى الإقتصادية لتحويل مجرى النهر تصب كلها في خانة التمويه المتعمد لحقيقة أن النهر بيع بالتقسيط المريح وأن الشركات الأجنبية قامت بتفكيكه وشحنته خارج الوطن. رأى خارطة الوطن وقد إنكمشت وتحولت الى جزر صغيرة موزعة فوق الصحراء. يا للكارثة هل باعوا حتى مشاريعي الزراعية التي كنت أزوّد بها مصانع لانكشاير بالقطن طويل التيلة؟

مضى يتفقد عاصمته القديمة، فراى أعلام الدول الأجنبية ترفرف في كل مكان، أين حديقة حيواناتي الجميلة؟ عندها فقط رأى الصورة الموجودة في ذاكرته منذ قرون، لأسد حديقة حيواناته وهو مشحون في قفص من خشب المهوقني في قعر سفينة شحن يونانية! يا للكارثة حتى أسود حديقة حيواناتي هاجرت من الوطن؟

فاجأه أذان الفجر فوق لوحة المفاتيح! تذكر أن الطبيب علّمه ضرورة إغلاق الجهاز بصورة محددة حتى لا يتلف، نسي كيف يحدث ذلك وقام بسحب فيشة الكهرباء تاركا الجهاز يسلّم روحه الضوئية الى ظلمة شبكة أسلاكه العنكبوتية.

إستيقظ ظهرا على صوت الآذان، كان سعيدا بالكوة التي انفتحت عليه من السماء ليعرف شيئا مما يدور في العالم من حوله. بعد أن شرب قهوته، تمشى قليلا في المساحة الضيقة أمام بوابة القصر والتي كانت تطل على الحديقة والنهر في الزمن الغابر، وجد الحارس الصغير الذي ساعده قبل أسابيع في إستعادة البلبل الى أرض الوطن. جلس بجانب الحارس على دكة خشبية وبدأ يسأله عن أحوال الناس في الخارج. قال الحارس: لم أر في طريقي سوى عمال أجانب، معظم الناس هاجرت من الوطن سيدي الرئيس.

قال السيد الرئيس: سوف أعثر عليهم جميعا الآن يمكنني الإتصال بالعالم كله!

لم يفهم الحارس الصغير كلام السيد الرئيس الذي أوضح:

إنني أستخدم شبكة الانترنت الآن، هل تستخدمها أنت ايضا؟

قال الحارس انه سمع بها لكن لأن الخدمة تكلف كثيرا فهو لا يستطيع إستخدامها.

ثم أوضح:بعد أن تركت الجيش اضطررت لترك دراستي ايضا بسبب مصروفاتها العالية، ووجدت هذا العمل مع شركة أمنية تحرس القصر حتى أساعد والدي، قبل فترة طردوا شقيقي الأصغر من المدرسة بسبب عدم تسديد رسوم الدراسة ولن يستطيع العودة للمدرسة حتى أتمكن من دفع الرسوم.

جحظت عيون السيد الرئيس وهو يقول: لكن التعليم مجاني لكل شعبي من الفقراء!

قال الحارس لا يوجد تعليم مجاني في هذه المدينة!

بدا الحزن والتفكير على وجه السيد الرئيس قبل أن يقول: هل قلت شركة أمنية، ألست مجندا في الجيش؟ ضحك الحارس الصغير وقال: عن أي جيش تتحدث سيدى، لا يوجد جيش. هناك حرب لا تزال مشتعلة فيما تبقى من الوطن، لكن رجال الشركة الوطنية يستخدمون قوات الجنجويد بديلا للجيش، كما يخطفون الشباب من الأسواق والشوارع وبعد تدريب سريع يرسلونهم لمناطق العمليات. لذلك هجر معظم الشباب الوطن سيدي! لا تعليم

ولا غذاء أو دواء ويريدون روحك أيضا لتحارب نيابة عنهم! من يريد الزواج عليه الموت أولا يا سيدي، يقال أن قوات الجنجويد ستحضر ايضا لحماية العاصمة من هجمات متوقعة لقوات التمرد.

تذكر أن الطبيب نبهه الى موقع محرك البحث قوقل حيث بإمكانه العثور على معلومات عن كل ما يخطر بباله.كتب كلمة جنجويد في محرك البحث فظهرت له معلومات رهيبة حول ميليشيات أرتكبت مجازر في غرب الوطن، أحرقت القرى وشردت المواطنين من قراهم. وأن النظام هو الذي يقوم بتسليح تلك الميليشيات ويدفع بها لتحارب نيابة عنه.

لم يستطع إنتظار زيارة الطبيب التالية وبحث بنفسه عن موقع تويتر، وقبل أن ينتشر ضوء الفجر ويبدأ البلبل في التغريد كان هو قد أرسل أولى تغريداته، لم يكن واثقا إن كان أحدا سيتعرف على إسمه، فالعجوز الذي مضى يتعفن في وحدة قصره بعد أن سحبت الشركة الوطنية التي تدير الوطن كل خيوط اللعبة من بين يديه، وتركت له فقط خيوط ذكرياته الضائعة في مدار النسيان، يغزل فيها طاقية إخفاء أوهامه وحرمانه، في ساعات الأصائل على هدى ومضات حنين غامض الى رياحين نهر ضاع في ذاكرته قبل أن يضيع في متاهة العالم. أملا في أن يعيد الحياة الى العالم من حوله. ويستخدم حيلة النجوم التي يعيد تثبيتها في الذاكرة من وحي خبرته القديمة في السفر عبر الصحراء مستهديا بالنجوم لتحديد مسار رحلته. هو العجوز نفسه الذي لم يعد يذكره سوى الحراس الذين يسهرون على حمايته رغم أنه كان يظهر أحيانا في نشرة أخبار التلفزيون، يقص الشريط إيذانا بإفتتاح مشاريع منسية أو يظهر في جولة تفقدية في ربوع الوطن لدحض شائعة إندلاع الحرب الأهلية مرة أخرى، أو يظهر وهو يقود قاربه في النهر لدحض شائعة إختفاء النهر.

كتب في تغريدته الأولى: أين ذهبت مؤسساتي التعليمية التي كانت تقدم خدماتها لفقراء شعبي مجانا؟

ظهر إسمه فقط في موقع تويتر، لم يكتب رتبته العسكرية ولم يعرف كيف يمكنه وضع صورة، أمام الوظيفة كتب رئيس الجمهورية. إعتقد الكثيرون أن الأمر مجرد مزحة، فإسمه كان قد تلاشى من ذاكرة الوطن منذ اللحظة التي أسلم فيها قيادة الوطن للشركة الوطنية، التي مضت تسحب منه بساط السلطة ببطء حتى دفنته في النسيان، حتى القصر الذي بقي فيه وحيدا مثل كائن خرافي نجا من طوفان أغرق العالم كله، كان يصبح فيه غريبا يوما بعد يوم، يشعر كأن جدران هذا القصرالاستعماري العتيق، تكاد كل يوم تضيق وتنطبق عليه

كأنها تتمدد حتى الى دواخله، يشاهد عسكر الدول الأجنبية يتسللون حتى الى أحلامه. أشجار معمرة في الحديقة، زرعتها حكومة الاستعمار الانجليزي، يتركها مساء وهي تلقي بظلالها الوارفة فوق نافذة غرفة نومه، ليكتشف إختفائها صباحا. في البداية كان يوقّع كل صباح على حزمة من الأوراق والقرارات الجمهورية التي يحضرها مندوب الشركة الوطنية. دون أن يلاحظ أن تلك الاوراق كانت تجرده تدريجيا من كل شئ بل وتحمّله ايضا مسئولية قرارات خطيرة كان يجري تنفيذها من وراء ظهره. كان مجلس الوزراء ينعقد في البداية في نفس موعده الاسبوعي، لكنه كان يجلس داخله مثل الغريب، لا يفقه فقط شيئا مما يدور في الاجتماعات، بل لا يستطيع ايضا أن يحفظ في ذاكرته صورة واحدة من وجوه هؤلاء الوزراء المتعجلين، الذين لا يتحدثون كثيرا، بل يشرحون كل شئ على شاشة في الجدار ، يبدون سعداء بأجهزة الكمبيوتر المحمول وببرنامج البور بوينت ، كأن فيها حلا لكل مشاكل العالم، كأن العرض المصور المدعم بالأرقام، ليس سوى سحر إلكتروني كفيل بحل مشاكل العالم بمجرد لمسة زر.

أصدر قرارا جمهوريا أخيرا، أن يضع كل وزير لافتة أمامه توضح إسمه والمنصب الذي يشغله وتاريخ تعيينه في منصبه، زادته المعلومات المكتوبة إرباكا على إرباك، سيل صور ورسومات ومعادلات البور بوينت. يلاحظ أنه يزداد عزلة كلما حاول الاقتراب أكثر لفهم ما يحدث حوله، تبدأ جدران الوحدة تنطبق الى دواخله حتى وهو جالس في صخب هذه الاجتماعات الالكترونية الاسبوعية، تتغير الوجوه وتبقى اللافتات نفسها.

جذب إشتراكه في موقع تويترعددا كبيرا من المتابعين، معظمهم من خارج الوطن، حسب الكثيرون أن في الأمر مزحة ما، وأن صاحب الحساب يقود إنقلابا تويتريا أبيضا، بدون حتى مارشات عسكرية. تطورت المزحة فأصبح عدد من المتابعين يضعون سيرتهم الذاتية المختصرة، ويرشحون أنفسهم للإعلان الوزاري المرتقب. وإنهالت في بريده رسائل من نوع: لدي خبرة جيدة في الحسابات، عملت محاسبا مع شركة أمريكية، وحصلت على درجة الماستر في إدارة الاعمال من جامعة أكسفورد. إضافة لزمالة المحاسبين الاداريين الامريكية، يمكنني وضع خطة لإنعاش الاقتصاد الوطني خلال ثلاثة أيام. وصلته رسالة من سفير سابق، طرد من عمله قبل سنوات، يرشح نفسه وزيرا للخارجية، رسائل من ضباط شرطة طردوا من الخدمة ومن أطباء وزراعيين أحيلو للصالح العام، وصلته رسالة من طالب صغير، قال إن امنية حياته أن يصبح وزيرا للتعليم لكي يلغي مرحلة التعليم الابتدائية التي أرهقته كثيرا.

ورسالة من سيدة تنبهه الى ضرورة حفظ حقوق المرأة وضمان تمثيلها العادل ضمن التشكيل الوزاري الجديد.حاول أن يجد مخرجا عن قصة التشكيل الوزاري بإرسال تغريدات فنية ورياضية. قال له أحدهم: هل انت رئيس منفي أم سابق؟ أين تعيش سيدي الرئيس؟

أثارت إجابته عاصفة من الضحك والسخرية.

كتب ردا على السؤال: أعيش في القصر الجمهوري!

علّق أحدهم ضاحكا، سمعنا قبل سنوات أن القصر إشتراه مستثمر هندي وحوّله الى مركز تجاري في وسطه حديقة ألعاب للأطفال. هل تكون أنت المستثمر الهندي أم شخص وقع على رأسه من إحدى المراجيح في حديقة الألعاب!

وعلّق متابع آخر على حكاية المستثمر الهندي: سمعت أن القصر إشترته منظمة أطباء بلا حدود وحولته الى مشفى للأمراض العصبية. بعد أن قامت الشركة الوطنية ببيع مستشفى الأمراض العصبية، الى بعض المستثمرين الوطنيين الذين قاموا بتحويل المستشفى الى مركز حديث للتسوق، يقال أن عددا كبيرا من المرضى هربوا قبل نقلهم الى أحد السجون المؤقتة. قامت قوات الجنجويد التي كانت تحرس المرضى، بإلقاء القبض على المرضى الهاربين، دون التثبت ان كان هؤلاء هم نفس المرضى الذين لاذوا بالفرار أم آخرين. حسب التقارير هرب ألف و سبعمائة مريض، وتمكنت قوات الجنجويد من إستعادة أكثر من ثلاثة آلاف مريض!

كتب متابع آخر: المرضى يهربون، تقوم بعض المنظمات الدولية بالاشراف على سجن المرضى النفسيين لحين علاجهم أو توزيعهم على مستشفيات أخرى، يحصل المرضى على وجبتين يوميا، وملابس نظيفة. ذلك يفسّر أسباب تسليم مواطنين أصحاء أنفسهم على أنهم مرضى، لا يمكن أن يهرب من نعيم هذا السجن الا مجنون!

كتب متابع آخر: الوطن كله اصبح سجنا كبيرا لكن لا توجد به أية خدمات، ما دمت مضطرا للبقاء سيكون أفضل مكان هو مستشفى الأمراض العصبية، أو القصر الجمهوري سابقا!

كتب السيد الرئيس محاولا الهروب الى الأمام من حكاية القصر الجمهوري الذي تحول الى مشفى للأمراض العصبية: هل سيشارك فريقنا القومي في دورة سيكافا؟

علّق أحدهم على تغريدته: هل أنت متأكد أنك تعيش في الوطن؟ لم يعد هناك فريق قومي منذ سنوات! شرح له أحدهم: حين تكون هناك مباريات دولية تقوم الشركة الوطنية بشراء 11 لاعبا تمنحهم جنسيات الوطن في نفس لحظة توقيع شرائهم من أنديتهم. وبسبب غلاء أسعار اللاعبين وبسبب خطة التشقف الاقتصادي لا يقومون بشراء أية لاعب إحتياطي. اذا مرض لاعب أو طرد من الملعب، يستمر اللعب بفريق ناقص. مرة لعب فريقنا القومي بدون حارس مرمى، حين أصيب الحارس. علّق أحد المتابعين: نعم ولحسن الحظ كان الفريق المنافس ضعيفا فلم يدخل أية هدف في مرمانا الخالي! ضحك متابع آخر قائلا: يقال أن رئيس الشركة الوطنية قال لم يكن المرمى خاليا، لقد قامت العناية الالهية بحراسته! في المرات القادمة سنحتاج للاعبين أقل، لا داعي لصرف المال الذي تحتاجه دولتنا للتنمية في شراء لاعب تكفينا العناية الالهية شر الحوجة إليه! قال متابع آخر أن الوزير المشرف على الرياضة في الشركة الوطنية يتعاقد قبل المباريات الدولية مع ساحر محلي، يحصل الساحر على نسبة من دخل المبارة في حال فوز الفريق القومي، بهدف واحد مقابل لا شئ، كما يحصل على مبلغ من المال مقابل كل هدف إضافي، واذا إنتهت المباراة بالتعادل، يحصل الساحر على مبلغ قليل، وفي حال الهزيمة يتم إلغاء العقد مع الساحر. ويتم طرح عطاء جديد ينشر إعلانه في الصحيفة الرسمية بعنوان: مطلوب ساحر يضمن الفوز ببطولة سيكافا!

يلاحظ أن لا أحد يتابعه من داخل الوطن، كلهم من خارجه. حتى أنه يغرد: الا يوجد أحد هنا؟

يدق يوميا على باب الوطن دون مجيب، أخيرا يرد شخص ما من خارج الوطن: أين تعيش سيدي الرئيس؟ ألا توجد نوافذ في قصرك الجمهوري سيدي الرئيس؟

رد السيد الرئيس: توجد نافذة كبيرة بجانبي الآن كانت تطل على الحديقة، لكن الستائر السوداء تغطيها، لا استطيع رفع الستائر حسب تعليمات الأمن وهناك كاميرات مراقبة.

قال الرجل: هل تريد رؤية الجنجويد، أرفع الستار قليلا وأنظر الى الخارج!

نفذ تعليمات متابعه حرفيا، لم ير شيئا في البداية لكنه داوم على التلصص بقية النهار. رأى من على البعد رجالا غرباء يتجولون في الحديقة على ظهور خيولهم! لا بد أنهم من شرطة السواري، كان ذلك أول ما فكر فيه. لاحظ بفرح أنه يرى الحديقة بعد زوال الأسوار العالية

التي كانت تعزلها عن القصر، فكّر قائلا هل عادت الحديقة الى حضن الوطن، أم إنضم القصر نفسه الى دولة أخرى؟

في تغريدته الجديدة كتب هواجسه الجديدة: هل عادت الحديقة الى حضن الوطن، أم إنضم القصر نفسه الى دولة أخرى؟

سأله أحد متابعيه: ما الذي تراه بالضبط في الحديقة؟

كتب: أرى رجالا يجوبون الحديقة على ظهور الخيول، لابد أنهم شرطة السواري!

رد عليه المتابع: لا توجد شرطة، هؤلاء هم الجنجويد!

صعق السيد الرئيس، أليست هي نفس الميليشيات التي إرتكبت جرائم حرب في غرب الوطن، كتب تغريدته الجديدة: ماذا يفعل الجنجويد في قصري؟ وفي عاصمتي؟

إنقطعت خدمة الانترنت على الفور، بقى التشكيل الوزاري الجديد معلقا في الهواء، فيما بقي هو في إنتظار الطبيب ليقوم بإصلاح مشكلة توقف خدمة الانترنت.

لم يأت الطبيب في موعده التالي، أصابت السيد الرئيس حالة من الوجد الانترنتي. كان يشعر بحكاك في جسمه ورغبة في النوم فوق وجهه. عانى من نفس حالة القلق الذي كان ينتابه قبل سنوات حين يحل موعد الجلوس لمعاقرة الخمر. لم ير جندي الحراسة الصغير منذ عدة أيام، ولا مندوب الشركة الوطنية. الطباخ كان هو الشخص الوحيد الذي يراه يوميا، يحضر في نفس الموعد كل يوم صباحا، يعد له إفطاره. طبق البيض المقلي في الزيت مع طبق الفول وطبق الزبادي وكوب القهوة. وحسب طلبه يعد له أحيانا البيض المسلوق والجبن البيضاء وطبق السلطة. أحيانا يختفي طبق السلطة، وحين يسأل السيد الرئيس يوضح له الطباخ: لم يحضر مندوب الشركة أية خضروات هذا الاسبوع سيدي، أسعار الطماطم مرتفعة هذه الايام في السوق، يصاب السيد الرئيس بالدهشة، كيف ترتفع أسعار الطماطم في بلدي رغم ملايين الأفدنة الزراعية والأنهار والأمطار الموسمية؟

يبتسم الطبّاخ ويتردد قليلا وهو ينظر حواليه ويقول: يقولون أن معظم الاراضي الصالحة بيعت لمستثمرين أجانب والخضروات تطرح في الاسواق بنفس أسعارها خارج الوطن!

قال السيد الرئيس مندهشا: يعني أننا نستورد إحتياجاتنا من داخل وطننا نفسه؟

بعد أن يعد له الافطار يعد له الحساء لطعام الغداء مع قطعة لحم مشوية، تكون أحيانا من الدجاج او السمك، مع قطعة خبز أسمر. في الزمن الماضي كان يعشق شوربة الحمام ويعشق الحمام المشوي نفسه، لكن بعد إصابته بالنقرس منعه الطبيب من اللحم الأحمر ولحم الحمام.

شكا للطباخ عدم حضور الطبيب في موعده، أبدى الطباخ رغبة في مساعدته لكنه لم يكن يعرف كيف يمكنه عمل شئ، إقترح أن يتصل بالشخص الذي يحضر مستلزمات المطبخ ربما بإمكانه ان يبلغ أحدا في الشركة الوطنية للاتصال بالطبيب.

سأله الطباخ: هل تشكو من شئ الآن سيدي الرئيس؟

نظر السيد الرئيس حواليه وقال: نعم لا يوجد إنترنت!

لم ينتبه الطبّاخ في البداية الى ما يقصده السيد الرئيس وقال: ربما يمكنني الذهاب الى صيدلية قريبة وشراء هذا الدواء!

إبتسم السيد الرئيس وقال: إنه دواء للوحدة، لكنه لا يباع في الصيدليات!

إعتقد الطباخ أن الامر يدور حول أعشاب طبية، قال هناك رجل في جوارنا يعالج الناس بالاعشاب وبالكي بالنار ربما بإمكاني أن أحضره لك اليوم أو غدا.

أوضح له السيد الرئيس أنه لا يستطيع الدخول الى شبكة الانترنت. قال الطباخ: لقد فهمت، لم تتح لي فرصة التعامل مع الانترنت لكن الشباب الصغار في حينا يتحدثون عنه كثيرا.

ربما يمكنني سؤالهم ان كان احدهم يعرف كيفية إصلاح المشكلة. قال السيد الرئيس لا مشكلة سيحضر مندوب الشركة الوطنية ربما اليوم أو ان حضر الجندي الصغير يمكنني ارساله لإحضار شخص لاصلاح العطل ان لم يحضر الطبيب.

بعد يومين حضر طبيب آخر، شعر السيد الرئيس بخيبة أمل كان قد تعود على الطبيب الآخر، عرف من الطبيب الجديد أن الطبيب الآخر مريض وربما يستأنف الحضور الى القصر خلال أسابيع. إعتذر الطبيب الجديد أنه لا يفهم كثيرا في أجهزة الكمبيوتر وإقترح على السيد الرئيس الاتصال بالشركة الوطنية قائلا: حسب علمي لديهم شركة مختصة في إصلاح الأجهزة والشبكات يتعاملون معها لكل المرافق التابعة للحكومة.

لم يحضر المندوب، قضى السيد الرئيس أياما قلقة. يرى جهاز الكمبيوتر أثناء النوم وقد عادت اليه الحياة فجأة، وبدأ الناس يخرجون منه، يبدون في هيئة أقزام ثم تكبر أجسادهم مجرد أن يغادروا شاشة الجهاز. راى أناسا يتحاورون ويكملون حواراتهم في الخارج مستخدمين العصي في البداية، ثم بنادق الكلاشنكوف. رأى صحفا تخرج من الجهاز في أوراق طويلة تنفتح فجأة أمامه مثل بساط أحمر يتفقد من فوقه حرس الشرف، فيما أشخاص غرباء يطاردون الصحيفة الطويلة ويحاولون طيها وجمعها من أمامه، رأى مسيرات ضخمة تجوب شوارع الوطن قبل أن تفرّقها قوات الجنجويد بالرصاص.

في اليوم الثالث حضر الجندي الصغير، قال أنه كان مريضا بالملاريا. أستفسر السيد الرئيس: كيف يوجد بعوض حين لا يوجد نهر؟

قال الجندي الصغير يقوم الأهالي بحفر آبار لتصريف مياه الاستحمام وفضلات المراحيض. لكن لا يتم بناء هذه الابار بصورة صحيحة لذلك يتوالد فيها البعوض والذباب.

حين عرف الجندي بمشكلة الانترنت إقترح أن يحضر معه في اليوم التالي شخصا خبيرا يملك محلا لصيانة الاجهزة، قام الخبير بفحص كل شئ، وجد جهاز الكمبيوتر سليما. وأسلاك التوصيلات كلها مضبوطة لكن خدمة الانترنت مقطوعة. أبلغ السيد الرئيس أنه لابد من الاتصال بالشركة التي تزوّد القصر بخدمة الانترنت، وأوضح: كل الاجهزة هنا سليمة وموصولة بطريقة صحيحة، لابد أن الخدمة مقطوعة. وإبتسم الرجل وهو يقول: الا تدفع الحكومة أيضا تكلفة خدمة الأنترنت حتى تقوم الشركة صاحبة الخدمة بقطعها؟

بعد يومين حضر مندوب الشركة الوطنية، حضر بهدوء وكأنه لم يكن راغبا في مقابلة السيد الرئيس الذي وجده يفحص بعض الاوراق في المكتب المخصص للشركة.

سأله السيد الرئيس عن أسباب وقف خدمة الانترنت؟

قال المندوب: كانت هناك مشاكل مع الشركة التي تزود الخدمة، قمنا بدفع المتأخرات سيتم استئناف الخدمة ربما اليوم أو غدا. ثم صمت قليلا قبل أن يقول: الحذر مهم عند التعامل مع شبكة الانترنت، يوجد كثير ممن يريدون تدمير وطننا من مروجي الاشاعات، هؤلاء يسيئون لدماء الشهداء، ويقدمون خدمات مجانية لأعداء وطننا. بسببهم أحجم الكثير من المستثمرين الاجانب من الحضور الى بلادنا، بسبب شائعات الفساد وتدهور الخدمات والضرائب والرسوم الباهظة في بلادنا. بينما قوانين الاستثمار الجديدة التي تعمل الشركة

الوطنية بها، بعد أن أجازها البرلمان، تشجع المستثمر الاجنبي ولا تفرض عليه أية رسوم فقط تلزمه بتشغيل نسبة من العمالة المحلية لتخفيف حدة البطالة وإنعاش الاقتصاد الوطني. نحارب التمرد ونحارب الاشاعات، والاشاعة تدمر إقتصادنا أكثر من التمرد نفسه سيدي الرئيس، ولأنك رمز للدولة سيستغل البعض وجودك في بعض مواقع التواصل الاجتماعي للاساءة للوطن ولدماء الشهداء.

ثم إقترح على السيد الرئيس: يمكنك إستخدام إسم مستعار!

لم يفهم السيد الرئيس قصد المندوب من إستخدام إسم مستعار.

شرح المندوب، حين تقوم بتسجيل إسمك في أحد مواقع التواصل الإجتماعي مثلا، بدلا من إسمك الحقيقي أكتب إسما رمزيا مثلا الوطن أو النهر أو طائر الحباري. لن يطلب منك أحد أن تبرز بطاقة شخصية وأنت تقوم بالتسجيل في أحد المواقع. عندها يمكنك التحاور بحرية مع الآخرين بدلا من القيود التي سيفرضها عليك موقعك كرمز للوطن، يشعر بحنين جارف للوطن وكأنه يعيش في آخر العالم. سيسعده أن يكون رمزا لهذا الوطن، رغم كل الشكوك حول وجود الوطن نفسه، كيف لرمز الوطن الا يعرف أين تنتهي حدود هذا الوطن؟!

يستمر المندوب في نصائحه الالكترونية: يمكنك أيضا الكتابة في الفن والرياضة، الكتابة في السياسة تغري أعداء الوطن المتربصين به في العثور على أية ثغرة أو اشارة في كتاباتك لنسج مزيد من الشائعات التي تضر بمسيرة وطننا ونمائه.

وجد السيد الرئيس بعد عودة الروح الى جهاز الكمبيوتر، إقتراح طائر الحباري كإسم رمزي له مثلما إقترح المندوب جيدا، لكنه بعد أن فكر قليلا وتذكر البلبل الذي سمعه يغرد في المرة الأخيرة خارج الوطن حين كانت الحديقة تتبع لوطن آخر. قررأن يستخدم البلبل كإسم رمزي له. حين غرّد في تويتر لم يجد متابعين كثر هذه المرة، لا أحد يعلم لبلبله وظيفة أو عنوانا. في المرة السابقة كان إسمه المنسي حاضرا، لم يكن الاسم مهما لكن الوظيفة حسمت كل شئ. والعنوان كان مثيرا: الوظيفة رئيس جمهورية، العنوان القصر الجمهوري. وجد من يقترح عليه إحضار متابعين له بأعداد كبيرة، ظن أن الأمر خدمة تختص بالموقع نفسه أو يقوم بها أشخاص خيّرون من أهل الأسافير. لكنه أكتشف أنها خدمة مدفوعة الأجر يقوم بها بعض الأعضاء! اللعنة هل أصبح الانترنت نفسه تابعا للشركة الوطنية؟ كيف تسلل الفساد حتى الى السماء بأقمارها الاصطناعية! لكن الطبيب القديم الذي عاد يعاوده مرة أخرى أوضح له: كن حذرا سيدي الرئيس هناك نصب وإحتيال وسرقة في الانترنت، يجب أن تكون

حذرا حين تعطي أي شخص عبر الانترنت بياناتك الشخصية. هناك كثيرون تعرضوا للغش ولسرقة حساباتهم المصرفية. يقوم هؤلاء اللصوص بإرسال برامج تجسس تستطيع معرفة كل ما تكتبه على جهازك وتقوم بنسخ كلمات الدخول للمواقع والبريد الالكتروني والحسابات البنكية وارسالها للشخص الذي يرسل البرنامج.

دهش السيد الرئيس وقال: برنامج يكون لصا! يا للكارثة. لكنني قرأت في تويتر شيئا عن حكومات تقوم باستخدام برامج للتجسس ضد دول أخرى أو ضد معارضيها.

لم يعلق الطبيب لكنه كرر تحذيره وهو يجمع أدواته ويمضي.

ولمحاولة زيادة أعداد متابعيه بحث السيد الرئيس عن مشتركين من داخل الوطن، وجد بعض الشباب، عرف أنهم يقيمون خارج الوطن. حين عرفوا أنه مقيم بالداخل حاولوا من قياس نبض كتاباته، معرفة أحوال الوطن. لكن ما يكتبه كان خاليا من أية نبض يشير لأية حياة، حذره الشديد من الوقوع في أخطاء ترصدها عيون الشركة الوطنية، منعه من الكتابة بنفس وضوحه الأول. ذكرياته نفسها كانت تبدو تالفة، يستحيل تحديد زمان وقوعها. حين حاول أن يكتب عن الفن أو الرياضة كما نصحه مندوب الشركة الوطنية، كتب عن بعض لقاءاته في القرن الماضي ببعض رموز الفن والرياضة. لكن الوقائع التي مضى يسرد أجزاء من تفاصيلها بحذر، ظلت معلّقة في الهواء، دون أية خيوط تربطها بزمان أو مكان.كانت ذكرياته في الواقع مرآة عكست ليس فقط غربته التامة، عن العالم خارج اسوار القصر، بل حتى عن وقائع القرن الماضي في ذاكرته والتي كانت بمرور السنوات تتحول الى أسوار عالية داخل ذاكرته، تختفي خلفها تدريجيا تفاصيل عصور حكمه السالفة.

أبلغه قائد فرقة الجنجويد، أنت ممنوع من الخروج من غرفتك سيدي الرئيس، أنا آسف جدا. سيقوم أحد رجالي بتنفيذ كل طلباتك وإحضار كل ما تأمر به. لقد قدمنا مطالبنا الى الشركة الوطنية منذ أسابيع لرفع رواتبنا، لكنهم بدلا من ذلك لم يدفعوا لنا ولا حتى مرتبات هذا الشهر سيدي الرئيس. نحن نتحمل مسئولية الوطن كله، نحارب حركات التمرد، نحمي الحدود ونحمي القصر الجمهوري والعاصمة سيدي الرئيس، نحارب عصابات النهب المسلح وعصابات التهريب، ونقوم بتحصيل الرسوم الحكومية من المنقبين عن الذهب في صحاري الوطن، نراقب المارة في الشوارع حتى لا ترتدي إحدى الفتيات زيا مخالفا يتعارض مع توجهنا الحضاري الاسلامي. نراقب المعارضين ونراجع مقالات الصحف سيدي الرئيس حتى لا ينشر أحدهم مقالا يهدد أمن دولتنا ويوحي للأعداء ان جبهتنا الداخلية غير متماسكة.

قمنا بإحصاء سكان الوطن، وأعددنا قوائم الانتخابات وأشرفنا على توزيع الدوائر الانتخابية، وحراسة لجان التصويت وصناديق الاقتراع. وقمنا بالاشراف على وحراسة لجان فرز الأصوات، وساعدناهم في عملهم، أحضرنا لهم صناديق جديدة مليئة بأصوات صحيحة، تدعم مرشحي الشركة الوطنية في كل الدوائر الانتخابية، وسحبنا الصناديق القديمة المليئة بأصوات أعداء الوطن!. وحين أعلنوا فوز مرشحيهم، لم نسمع منهم ولا حتى كلمة شكرا، بدلا من ذلك وجهوا الشكر للشعب! رغم ان الشعب لم يعطيهم ولا صوت واحد، وقاطعت الأغلبية الانتخابات المعروفة نتيجتها سلفا.

يلقون لنا بفتات موائدهم آخر كل شهر، يتاجرون في كل شئ سيدي الرئيس. يبيعون أراضي الوطن، حتى هذا القصر يقال أنهم باعوه لتاجر هندي ثم عادوا وإستأجروه منه مؤقتا. يبيعون حتى التاريخ، كل الاثار القديمة قاموا ببيعها لشركة آسيوية، حتى أنهاره،

ونسهر نحن الليل كله في حمايتهم، في حماية اللصوص ومسروقاتهم. وحين نطالب بمرتباتنا، تختفي النقود من جيوبهم، فلا يعثرون على قرش واحد، وتجف حساباتهم البنكية التي تتدفق منها النقود الى الشارع في الظروف العادية من فرط التخمة المالية. يفكرون قليلا ثم يطلبون دائما مهلة ليدفعوا لنا، يعلنون في كل مرة: لا توجد سيولة نقدية في البنوك، كأن سيولة هذه البنوك لا تنقطع الا حين نقف نحن أمام نوافذ صرافة الشركة الوطنية لنتسلم مرتباتنا. دائما يجدون عذرا ما، بسبب المقاطعة الامريكية لا نستطيع بيع محصول الصمغ العربي، بسبب الحصار الاقتصادي لا نستطيع تحويل أموالنا في الخارج الى داخل الوطن! يحسدوننا لأننا نتقدم من صفوف الدول المتخلفة، بتنا نصنع طائرات دون طيار! (ما دمت صنعت الطائرة هل سيصعب عليك صناة طيّار؟!) وبنادق ومدافع وراجمات صواريخ! كل ما يقومون بصناعته أو تجميعه يطلق النار! لا يفكرون حين يخططون لعمل مصنع الا في القتل! لادواء ولا غذاء ولا ملابس او لعب للأطفال. حين نطلب حقوقنا يبحثون عن شماعة يعلّقون عليها أزماتهم: بسبب الأزمة الاقتصادية العالمية والكساد الذي يضرب اقتصاديات الدول العظمى، بسبب العقوبات الاقتصادية، نحن مستهدفون بسبب سياساتنا المستقلة وتوجهنا الحضاري!. بسبب فشل الموسم الزراعي لأن الامطار لم تهطل بالمعدل الكافي هذا العام .. يبدو أن الله أيضا يستهدفهم!

تساءل السيد الرئيس: هل هذا إنقلاب عسكري!

ضحك قائد الجنجويد وقال: هل تبقى شئ لنقوم بقلبه يا سيدي؟ كل شئ أصبح مقلوبا رأسا على عقب! ألم تسمع قصة الرجل المسن الذي قال تعليقا على شاب أعلن أنه لابد من إنقلاب لكي تنصلح الأحوال، قال المسن الحكيم: يا بني لن تحتاج لانقلاب، فالوطن مثل سيارة (مقلوبة) اصلا رأسا على عقب، لكننا محشورين في أسفل هذه السيارة المقلوبة ولا نستطيع أن نخلّص أنفسنا.

لو كنا نعرف من الذي يحكم هذا الوطن لما تأخرنا في الانقلاب عليه. لكننا نتفاوض كل يوم مع شخص آخر، نتلقى التعليمات من شخص ما ونقول : يبدو عليه النفوذ لابد أنه الرجل الاول في الشركة، لنفاجأ حين نسأل عنه في المرة التالية بأنه: ترك العمل مع الشركة. وأنه سافر للعمل في إحدى دول الخليج! ليحضر في المرة التالية رجل يمتلئ نفوذا وقوة، معاه مستشارون أكثر مما كان لديك في الأيام الخوالي سيدي الرئيس. كل كلمة تصدر عنه تسجل في جهاز كمبيوتر يحمله أحد معاونيه، لا يرد على سؤال او اقتراح قبل أن يتم استشارة الكمبيوتر كما سمعنا من معاونيه. حتى غاراتنا على القرى التي يحتمي المتمردون وسط

أهاليها، رحلات الصيد، حتى مواعيد نومنا مع زوجاتنا او سباياتا يحددها جهاز الكمبيوتر هذا! حتى أننا شككنا أن هذا الجهاز اللعين هو الذي يملك السلطة في هذا الوطن سيدي الرئيس! إنه طابور خامس، كمبيوتر عميل لدوائر أجنبية!

في المرة التالية نجد أيضا شخصا آخر، على نقيض سلفه لا يحفل بالأجهزة الذكية. لا يحمل سوى تليفون محمول، يغلقه حين يبدأ التفاوض معنا. يكتفي فقط بهز رأسه الى أسفل حين يستمع الى شكاوينا وطلباتنا، كأنه يوافق عليها، لا ينبس ببنت شفة حتى نهاية إجتماع يدوم ست ساعات، حتى أننا نشك أنه أخرس ونشتاق الى أيام سلفه صاحب القرارات الكمبيوترية الطيبة!

نحن شركاء في الهم سيدي الرئيس، نخدم في أشخاص مجهولين لا وجود لهم عمليا في اي مكان. أحيانا نقوم بحراسة إحدى الفلل الرئاسية حراسة مشددة لعدة أيام، لنكتشف فيما بعد، أننا كنا نحرس قصرا فارغا، نحرس مجموعة من الموظفين والحشم وزوجة صغيرة! أما المسئول نفسه فلا أحد يعلم عنه شيئا!

يجد نفسه أمام جهاز التلفزيون حين يخرج قائد الجنجويد، يرى نفسه يفتش حرس الشرف أثناء حفل استقبال لرئيس دولة زائرة. بدلا من الحرس المستأجر الذي كانوا يحضرونه في المرات السابقة، تعرّف على ثياب رجال الجنجويد، حرس الشرف من الجنجويد! رأى نفسه فيما طفلة تهديه باقة زهور ضخمة وضعتها له حول عنقه. يفكر مندهشا كيف استطعت الخروج لاستقبال الرئيس الضيف رغم انقلاب الجنجويد! يا للمعجزة، كيف حضرت حفل تدشين مصنع الطائرات التي تطير بدون طيّار؟ رغم انني محاصر في غرفتي لأن الجنجويد لم يتسلموا مرتبات شهر سبتمبر!

يجلس سارق الحمير في كرسيه بينما يجلس هو بأدب يستمع اليه، يقول له، مقامك محفوظ سيدي الرئيس، أنت من قاد هذه البلاد للاستقلال. وتلك كانت أولى أخطائك التي لا تغتفر، الوطن كله ظل ومنذ رحيل الاستعمار الانجليزي يشعر بالحنين الى ايامهم.كل شئ كان يسير مثل الساعة في أيامهم، لماذا فشلنا في كل شئ، لم نحافظ ولا حتى على خريطة الوطن، أنظر خلفك. وينظر السيد الرئيس خلفه، أنظر ألا ترى كيف يبدو الوطن الان؟ مثل جلباب مزقته الكلاب! نحن نتعلم منك سيدي الرئيس، أنا أملك القوة الان، وانت تملك رمز السلطة، لكن الرمز لا يحل مشكلة، لا يعطي للأطفال حليبا ولا خبزا للفقراء. لكننا نستفيد بالطبع من خبرتك الطويلة. يخرج من جيب قميصه رسالة، يمدها للرئيس ويقول:

أقرأها سيدي الرئيس وقل لي رأيك.

يقرأ السيد الرئيس، يأمره سارق الحمير: أقرأ بصوت عال سيدي الرئيس أريد أن اسمع صوتك الجميل وأنت تقرأ، صوتك الذي يذكرني بزمان الانقلابات العسكرية حين تذاع البيانات في أجهزة الراديو، بيان رقم واحد، بيان رقم اثنين، بيان رقم ثلاثة، ألم يكن بالامكان قراءة البيانات كلها في مرة واحدة بدلا من أنترك عملنا ونتحلق طوال اليوم حول جهاز المذياع؟

يشعر السيد الرئيس أن الأمر لا يختص بجمال صوته، أو ذكرى البيانات العسكرية، بقدر ما يختص بأنه يعمل الآن سكرتيرا لرجل أمي! يا للمهزلة، هل هذا معقول؟ الرجل يعلن دائما أنه يراقب الصحف ويقدّم تقارير عنها الى الشركة الوطنية!

يقرأ الرئيس: سنقوم بدفع مرتبات الفرقة خلال أيام قليلة، رجاء ارسال وحدة من الجنود لحراسة مصفاة البترول، سنقوم بفتح أنابيب التصدير يرجى ارسال عدد من الجنود لحمايتها من حركات التمرد الناشطة في المنطقة.إذا حدث هجوم لا نريد أسرى، ولا نريد أي حديث للإعلام قد يكون له تأثير سلبي على عملية تصدير النفط.

يقول سارق الحمير: تزداد أعبائنا كل يوم، نحتاج إلى تجنيد مزيد من الرجال، والفتات الذي يدفعونه لنا لا يكفي لأي شئ.

رجاء إرسال فرقة من قوات السلام والتنمية لتنفيذ حكم الاعدام في آخر مجموعة ألقي القبض عليها من المتمردين، سيتم الاعدام في السابعة صباحا يوم الخميس الموافق 23 من الشهر الجاري.

بناء على تقاريركم طوال الاسبوع المنصرم قررنا اغلاق صحيفة الغد المشرق نهائيا.

رجاء ارسال عدد من الجنود الى مباني الصحيفة لاغلاقها وجرد وإستلام محتوياتها. وإعتقال كل محرريها، رجاء إرسال مجموعة من رجالك الى مبنى صحيفة النهار، لتأديب رئيس تحريرها و محرريها. رجاء إلتزام تعليمات الضرب: الابتعاد عن الرأس والصدر وتوجيه ضربات قوية الى بقية أجزاء الجسم، يجب ألا يترك رجالك من خلفهم أية آثار قد تدل على هوياتهم، ويجب أن يرتدي رجالك ملابس غير مميزة ويضعون أقنعة على وجوههم.

دفع الفضول السيد الرئيس ليسأل : هل لديكم رجال حصلوا على التدريب اللازم ويعرفون كيف يتعاملون مع الصحافة؟

قال سارق الحمير: وهل يحتاج التعامل مع مقالات صحف كلها أكاذيب الى تدريب؟ مساء يحضر أحد رجالي بروفات الصحف كلها، يقوم أحدهم بقراءة نماذج من المقالات لي، أنا لم أنس القراءة والكتابة التي تعلمتها في الخلوة. لكنني لا أحب إستخدام نظارات للقراءة. تحطمت نظارة القراءة التي كنت أضعها في جيبي حين صددنا آخر هجوم لقوات التمرد على العاصمة. شعرت بالتشاؤم من نظارة القراءة، تزيد في عمرك سنوات ومجرد أن استخدمها

لقراءة شئ ما، تحدث مصيبة ما، يشن المتمردون هجوما على قواتنا أو يقومون بتفجير أنابيب النفط فتجد الشركة الوطنية عذرا لعدم دفع مرتباتنا.

من السطر الأول أحدد ان كان المقال يجب أن ينشر أم لا، ومن بين السطور أحدد إن كان محرر المقال يجب أن يتوقف من العمل أم لا، ومن نماذج عدد من المقالات احدد ان كانت الصحيفة ستغلق ام ستستمر في الصدور.

هنا، يوجد كل شئ! أعلن سارق الحمير ذلك ثم ترك يده تختار لوحدها المكان الذي يريد الاشارة له. تجولت اليد فوق جسده ثم إستقرت فوق أسفل بطنه، ربما كان يقصد الاشارة الى رأسه لكن اليد إختارت مكانا آخر، لكن لا مشكلة ربما لا فرق عند سارق الحمير بين المخ وعضو الذكورة!

يبحث في جيبه عن أوراق أخرى، يتخذ قرارا جنجويديا جمهوريا، لن نرسل أحدا الى أنابيب البترول، فليفجرها المتمردون كلها، سيكون ذلك مفيدا أيضا للشركة الوطنية، سيقبضون أموال التأمين على الخطوط! لن نعدم أحدا ونحن لا نملك قرشا واحدا، كيف تقتل الناس وأنت لا تملك حتى ثمن وجبة إفطار بعد أن ترهق نفسك بقتل الناس دون محاكمة! لن نغلق صحيفة الغد المشرق، ستستمر في الصدور حتى نقبض نحن مرتباتنا! ولن نذهب لضرب محرري صحيفة النهار، يجب أن تكون الصحافة حرة، على الأقل حتى نقبض مرتباتنا! يستولون على أموال الناس ويحرمونهم حقوقهم، ويرفضون حتى كلمة نقد في صحيفة لا يقرأها احد! أستطيع حراسة هذه المدينة فيبقى الناس أحياء الى حين، كما أستطيع سحب جنودي في اي لحظة واترك المتمردين يقبضون أرواح كل شئ فيها! يدمرون حتى الأشجار! لو كنت مكان المتمردين لشننت هجوما أول الشهر، حين نتوقف عن العمل لحين استلام مرتباتنا! نتوقف عن كل شئ، نتوقف حتى عن إغتصاب النساء! أليس ذلك عملا؟ لو احضروا معتقلا سياسيا لن نقوم بتعذيبه أو خلع اظافره! لو أطلق أحدهم طلقة نحوي فلن أرد عليه! دعك عن أقوم بحماية مجموعة من اللصوص بدعوى حماية الوطن ومقدرات الثورة!

أنت تملك إسما مهما وتملك قصرا منيفا، أنا أملك السلطة فقط، سلطة البندقية. لكنني مثلك أقف في نهاية الشهر في صف طويل أمام الشركة الوطنية لاتسلم مرتبي وأقوم بالبصم على الورقة التي يمد بها إلي موظف حسابات الشركة الوطنية! موظف الحسابات يتفرس في وجهي كأنني هبطت من القمر، ينظر الى ملابسي بإستهجان، كأنني يجب ألا أحصل على أية

حقوق وأنا أرتدي هذه الملابس. يعيد فحص الأوراق أمامه، يسألني : ماذا تعمل يا سيدي؟ في كل مرة أذهب لاستلام مرتبي، يحرسني ثلاثة من أشد رجالي، هم في الواقع يحرسون موظف الحسابات مني، لديهم تعليمات مشددة أصدرها بنفسي لهما قبل حضورنا الى الشركة، أن يمنعاني حتى لوبالقوة من قتل الموظف حين يسألني عن عملي الذي أتقاضى بسببه مرتبا من الشركة الوطنية!

أنا لا أجيد التعامل مع موظفي الحسابات، المرة الوحيدة التي تعاملت فيها مع بنك كانت حين قمنا قبل سنوات بالسطو على مصرف في احدى المدن البعيدة. بعد أن تطورنا من سرقة الحمير الى سرقة البنوك. إرتفعت اسعار كل شئ، هل سنبقى الى الأبد نسرق الحمير؟ أفضل حمار لا يساوي أكثر من ألف جنيه. الحمار الداراوي يحبه الناس رغم انه دميم ويكون غالبا قصير القامة، البعض يفضلون الحمار المكادي.

مكتب حسابات الشركة الوطنية هو المكان الوحيد الذي أحرص فيه على عدم إستخدام الكلاشينكوف لحل مشاكلي، حين يسألني موظف الحسابات في كل مرة عن مهنتي، يتأهب رجالي، وأخرج أنا بطاقتي الشخصية أدفع بها إليه ، يقرأ وظيفتي بصوت عال كأنه لا يصدق أن الواقف أمامه يحمل رتبة جنرال، قائد قوات السلام والتنمية. يسألني متهكما: هل يوجد لدينا سلام أو تنمية؟ كيف يعيّنون شخصا مثله في هذه الوظيفة، شخص يسخر من الرجل الذي يحمي ظهورهم وهم غارقون في صفقات بيع كل شئ، بدءا من القصر الجمهوري وإنتهاء بنهر النيل والاراضي الخصبة على ضفتيه. يبيعون حتى ما في الغيب، وجدت رجل أعمال اجنبي إشترى من الشركة الوطنية، آلاف الأفدنة في نطاق الزراعة المطرية. بيع الأرض ليس الغريب لكن وجدت أنه في العقد قد إشترى أيضا الأمطار التي ستهطل في المنطقة بسعر تشجيعي لمدة عشر سنوات! ولم أجد في العقد أية إشارة أن أمواله سترد اذا لم تهطل الأمطار في واحد من العشرة أعوام القادمة! حكى لي أحد الأخوة أنه راى عقدا أغرب من هذا، باعوا فيه المطر لمستثمر أجنبي إستأجر عدة ألاف من الأفدنة، ويبدو أن المستثمر الغريب تنبه لإحتمال عدم سقوط المطر بسبب موسم غير متوقع للجفاف، فأضافوا بندا للعقد أنهم سيقومون في حال عدم هطول المطر في إحدى سنوات العقد بأداء صلاة إستسقاء خاصة في المنطقة التي يستأجرها على أن يدفع للشركة الوطنية التي ستقوم بحشد مصلين مشهود لهم بالأمانة وحسن الخلق لضمان استجابة دعواتهم لانزال المطر، على أن يدفع للشركة خمسة في المائة من إنتاج مزارعه لتغطية منصرفات صلاة الاستسقاء!

وبعد كل ذلك يتجرأ موظف صغير على سؤالي عن مهنتي! لا أرد عليه، أنا جنرال وهو مجرد موظف حسابات لكنه يستطيع تعطيلك في هذه الشمس الحارقة، أمد أصبعي لأضع بصمتي فوق ورقته، وأتسلم حزمة المرتب، القوة نفسها تتضاءل أمام المال! حين كنا نعيش على النهب كنا أسعد حالا، لم يكن لدينا طموح كثير. كنا نأخذ حقوقنا بأيدينا دون الوقوف في صف أو الاستماع لاذلال الموظفين لنا، من يقف أمامنا نمسحه فورا من الوجود.

كنا نأكل عصيدة الدخن ونشرب حليب الأبقار الطازج، ونأكل لحم الضأن المشوي. الان ندفع نصف ما تدفعه لنا الشركة الوطنية في فواتير التليفون المحمول رغم أننا نستخدم التليفون في أداء أعمالنا، وندفع النصف الباقي للأكل والشراب، حتى اللحم والخضروات تحضرها لنا إحدى الشركات التابعة للشركة الوطنية الى القصر، أي أن الشركة الوطنية تأخذ بالشمال ما تعطيه لنا باليمين. في كل يوم نكتشف أننا مجرد محاربون متطوعين.نعمل لقاء ملء بطوننا. حتى الفرح في هذه المدينة يكلف مالا، قبل أشهر ذهبنا الى حفل حول حوض السباحة في أحد الفنادق، كان هناك عدد من الفنانين وتناولنا العشاء. هناك تذاكر لدخول الحفل، لكنني كنت أرتدي الزي الرسمي فسمحوا لي بالدخول دون تذكرة. في الشهر التالي وجدت المرتب ناقصا حين سألت عن السبب ذكروا لي أن ثمن تذكرة الحفل والعشاء الفاخر تم خصمه من مرتبي! يا للبخل! ويسمون فخذ دجاجة مع بضع حبات من البطاطس المقلي وكوب لبن عشاء فاخرا! حياتنا هنا مثل ساقية جحا تأخذ الماء من البحر وتعيده للبحر. لو عدنا لسرقة الحمير أو النهب المسلح لإستطعنا توفير بعض المال فالمستقبل ليس مضمونا مع هذه الشركة العجيبة. قبل أسابيع تلقيت دعوة لاشارك مع رئيس الشركة الوطنية في وضع إكليل من الزهور على قبر الجندي المجهول في حضور رئيس ضيف، بعد أيام تلقيت فاتورة بثمن باقة الزهور التي وضعتها على قبر الجندي المجهول! يا للمهزلة: سارق حمير يشتري زهور ليضعها على القبور! نحن أيضا جنود مجهولون، نقوم بكل شئ ولا يعرفنا أحد، نحمي حدود الوطن ونقوم بدور الجيش ، ربما نحن مجهولون لأننا نغطي وجوهنا حين ننفذ بعض المهام!.

رفضت دفع ثمن الزهور وقلت لهم أنني لم أذهب برغبتي، وصلتني دعوة وأرسلتم لي سيارة رسمية لتقلني! بعد أن تداولوا الأمر اعتذروا قائلين أن موظف حسابات الشركة إرتكب خطأ وانه حين طلب باقة الزهور بإسمي كان يعتقد أنني ذاهب لحفل زفاف!

يمد للسيد الرئيس جهاز اللابتوب المفتوح، أقرأ لي من فضلك رسالة الايميل هذه. يجد السيد الرئيس صندوق الرسائل مليئا بالاعلانات، أول رسالة من فتاة تريد أن تحدد موعدا.

قال قائد الجنجويد: أكتب لها من فضلك ردا، قل لها أن بإمكانها الحضور لمقابلتي دائما، عنواني هو القصر الجمهوري.

إبتسم السيد الرئيس وقال: أكتب لها بنفسك، لا أصلح وسيطا للحب!

قال قائد الجنجويد: ما الذي أدخل الحب في هذه الرسالة؟

قال الرئيس: الرسالة واضحة ربما تكون من شخص يريد أن يطلع على بياناتك الشخصية أو ربما بالفعل سيدة تريد عمل علاقة لمصلحة تريدها.

قال القائد: نحن في خدمة الشعب، لا يمكنني رفض رسالة إستغاثة حتى لو كانت مزورة، ألم تسمع بقصة ذلك الخليفة العظيم الذي غزا بلدا كاملة لأن إمرأة تعرضت هناك للتعذيب إستغاثت به ووصلته الاستغاثة، لابد أن استغاثتها أخذت وقتا طويلا حتى تصل لمسامع الخليفة. كان التجار والشعراء يقومون بدور وكالات الانباء ودور الايميل في نقل الاخبار.

قال السيد الرئيس: ما دمت في خدمة الشعب، هنا رسالة من رجل مريض يريد من يساعده في دفع تكلفة علاجه، لأنه مسن ولا عائل له!

قال قائد الجنجويد: هذا عمل مصلحة الزكاة، أكتب له أن بإمكانه الذهاب فورا لمصلحة الزكاة!

قال السيد الرئيس: لقد كتب في رسالته أنه ذهب اليهم وبعد عدة مرات كانوا يعطونه خلالها موعدا لا يوفون به، أعطوه مبلغا زهيدا لا يكفي ولا لشراء علبة دواء واحدة، ورفضوا دفع تكلفة العملية الجراحية التي يتعين عليه عملها!

قال قائد الجنجويد: وأين تذهب أموال الزكاة؟ كل شهر يقتطعون مبلغا كبيرا من أجورنا تذهب لمصلحة الزكاة! لابد أنها مثل ساقية جحا تعود مرة أخرى الى جيوب الشركة الوطنية!

قال السيد الرئيس: هناك أيضا آلاف النسوة يتعرضن الآن للتعذيب والاغتصاب ويستغثن ولا يسمعهن أحد، يمكنك أيضا أن ..

قاطعه قائد الجنجويد: لا تستمع الى إشاعات الاعلام الغربي سيدي الرئيس. أنت تقيم في القصر الجمهوري وتسلم أذنيك للاعلام الغربي ، ماذا سيفعل الناس العاديون في شوارع الوطن؟ هل يحملون السلاح ضد السلطة الشرعية المنتخبة؟

تساءل السيد الرئيس بجدية: هل بقي هناك أناس عاديون في الوطن؟ وهل السلطة منتخبة؟

قال قائد الجنجويد: بالطبع سيدي الرئيس لا تستمع الى أكاذيب الاعلام الغربي، جهاز الكمبيوتر الذي اصبحت مدمنا عليه سيدي الرئيس لا يجلب سوى الاكاذيب. يجب ألا تسلم نفسك طوال اليوم لسحر هذا الجهاز. يمكنك أن تخرج الى الحديقة تلتقي بعض الناس. تسافر لتتفقد بلادك البعيدة. البقاء لفترات طويلة في مكان واحد يسبب الاكتئاب ومرض القلب!

لكن مندوب الشركة الوطنية يقول ان الخروج من القصر أو السفر الى أي مكان خطر على حياتي.

لا توجد أية خطورة، سأحميك بنفسي إن حدث شئ!

هل يمكنني الذهاب إلى الحديقة الان أم انني لا استطيع الخروج حتى تقبض انت مرتبك؟

فكر قائد الجنجويد وقال للسيد الرئيس: تعال معي أريدك ان ترى مجموعة خيولي الأصيلة الجديدة، رأى السيد الريس مجموعة جميلة من الخيول، وسط الخيول فوجئ السيد الرئيس برؤية حمار أبيض ضخم جميل الهيئة، تذكر أنه في طفولته البعيدة كان يرى فقط العمدة في القرية هو الذي يركب مثل هذا الحمار. قال قائد الجنجويد كنا عائدين الى العاصمة بعد أن اوصلنا شحنة سلاح ارسلتها الشركة الوطنية لاحدى حركات التمرد في دولة مجاورة.في احدى القرى الواقعة في ضواحي العاصمة سمعت نهيق هذا الحمار فعرفت انه حمار اصيل أمرت احد رجالي باحضاره وقمنا بتأمين المكان تحسبا لأية مقاومة من صاحب الحمار. لكن صاحبه عرف فيما يبدو ان لا طاقة له بالوقوف امام قواتي فآثر أن يبدو وكأنه لم يشعر بسرقة الحمار رغم أنا رأينا شخصا يتلصص علينا من فوق الجدار!

عادت الحديقة الى حضن الوطن لكن ميليشيات الجنجويد قامت بإحتلالها، أصبح المكان معسكرا ضخما، في البداية كانت القوة كلها بما فيها قادتهم تقيم في الحديقة لكن بعد أشهر، توقفت أمام القصر عدة عربات تابعة لإحدى شركات النظافة، قاموا بفتح الجناح الغربي في القصر الذي كان مهجورا منذ سنوات، ثم قاموا بتنظيفه وأحضروا قطع أثاث جديدة.

عرف السيد الرئيس أن قائد الجنجويد سيقيم فيه مع زوجاته وأطفاله. ملأ ضجيج القادمون الجدد القصر، ذات صباح إستيقظ السيد الرئيس شاعرا أن عدة أعين كانت تراقبه في ضوء الغرفة الخفيف بسبب الستائر الزرقاء المسدلة، إعتقد في البداية أن القطط التي كان يعج بها القصر في الأيام الخوالي ، والتي إختفت منذ سنوات، ربما عادت مرة أخرى. سحب جسده من الفراش فوجد عددا من الأطفال يقفون عند الباب، حين رفع السيد الرئيس جسده إنسحب الاطفال وسمع صوت أقدامهم وهم يجرون مبتعدين عن المكان، إعتقد انهم عادوا الى بيتهم، لكنه وجدهم بعد أن خرج من الحمام يجلسون في البهو أمام غرفة نومه. أعد له الطباخ القهوة، قام بتشغيل جهاز التلفزيون وبحث عن قناة للأطفال، جاء قائد الجنجويد يحمل جهاز اللابتوب كعادته صباحا، طلب السيد الرئيس من الطباخ أن يعد له القهوة، لم يكن هناك رسائل جديدة كثيرة، معظمها تعليمات جديدة من الشركة الوطنية، إرسال قوة الى مناطق التعدين الأهلي شمال الوطن لجمع الضرائب والزكاة، إرسال قوة الى مناطق الزراعة المطرية في أواسط الوطن لجمع الضرائب على محاصيل الذرة والسمسم. عمال السكك الحديدية في بعض المحطات في شمال الوطن ووسطه أضربوا عن العمل، رجاء ارسال قوة لتسيير القطارات وإعتقال قادة العمال المضربين.

ضحك قائد الجنجويد وقال: هل سنقود قطارات أيضا، ألا يحتاج ذلك الى خبرة؟ نستطيع ركوب الخيول وقيادة عربات الدفع الرباعي لكن قيادة قطار ربما ستحتاج لبعض الخبرة. من سيقوم بتحويل الخطوط؟

توقف السيد الرئيس عن القراءة قليلا، كأنه يجب أن يرد على أسئلة قائد الجنجويد، ثم واصل قراءة الرسالة: ستكون حصتكم عشرة بالمائة من كل ما تقومون بتحصيله من أموال. لقاء تسيير القطارات ستحصلون على ربع تكلفة شحن البضائع بعد خصم الضرائب ورسوم الجمارك. هناك عدد من نقاط الشرطة لا يوجد بها رجال شرطة، عدد كبير من رجال الشرطة في المنطقة هجروا عملهم الى مناطق التنقيب العشوائي عن الذهب. رجاء إرسال عدد من الرجال للعمل كرجال شرطة، العمل في الشرطة أيضا عن طريق المقاولة. مقابل ربع الاموال المتحصلة من غرامات المرور، ورسوم فتح البلاغات ورسوم إستخراج وتجديد رخص قيادة السيارات وجوازات السفر وإستخراج أوراق الجنسية، ورسوم إطلاق سراح المسجونين بنظام الضمان. وصلت للشركة الوطنية عدة شكاوي من مواطنين في تلك المنطقة حول إصابة اشجار النخيل بمرض الحشرة القشرية، سنرسل لكم كميات من المبيد وعدد من العربات المجهزة بطلمبات الرش، مع معلومات حول تكلفة رش المبيد ومنصرفات السيارات. رجاء تحصيل الرسوم الموضحة من كل مزارع قبل رش المبيد. وتحصيل نسبة عشرة في المائة رسوم إدارية هي أجرتكم عن رش المبيد، في حالة نفاد كمية المبيد المرسلة أو عدم إختفاء المرض يرجى حرق النخيل المصابة حتى لا ينتشر المرض.

المعلمون في المدرسة الأساسية أيضا توقفوا عن العمل، يريدون زيادة مرتباتهم. الرجاء إرسال ثلاثة من رجالك ممن يستطيعون القراءة والكتابة لإعطاء دروس التربية الاسلامية والحساب واللغة العربية، سيحصلون على أجرهم من الرسوم التي يدفعها التلاميذ.

قال قائد الجنجويد: المدرسة يمكننا حل مشكلتها، لدينا رجال ذهبوا الى المدارس ويستطيعون القيام بهذا العمل، لحين حل مشاكل المدرسين المتوقفين عن العمل. قيادة القطارت ربما نضطر لإجبار بعض سائقي القطارات المضربين لتعليم رجالنا كيفية قيادة القطار. لن يكون ذلك صعبا في كل الأحوال، القطار يسير على الأرض. ما أخشاه أن يضرب الطيارون عن العمل! لا نستطيع قيادة اي شئ في السماء. لحسن الحظ ليس لديهم الكثير من الطائرات، حتى خطوط الطيران يقومون ببيعها أو تأجيرها لشركات أخرى.

قال السيد الرئيس: لكنهم يصنعون طائرات بدون طيار، لقد رأيت نفسي مرة في جهاز التلفزيون وأنا أفتتح المصنع، ثم وأنا أحضر بعد فترة تجربة أول طائرة تم تصنيعها!

قال قائد الجنجويد: لقد حضرت أنا أيضا التجربة، ذهبنا الى هناك لأنهم طلبوا منا حماية مكان الاحتفال، المعجزة أنها تطير ليس فقط دون طيّار بل أيضا دون محرّك!

قال السيد الرئيس مندهشا: وكيف حدث ذلك؟

قاموا بتعديل محرك (ركشة) وتركيبه في الطائرة، وبالفعل إنطلقت من الارض لكن المحرك سقط بعد دقائق والطائرة حملتها التيارات الهوائية كما أوضحوا لنا ولم يتم العثور عليها مرة أخرى مطلقا!

قال السيد الرئيس: لا يزال البعض يموتون في بلادنا بسبب الملاريا وأمراض اخرى تم القضاء عليها في العالم كله، والنساء يفقدن حياتهن أثناء الولادة، والأطفال حديثي الولادة تأكلهم الكلاب في الشوارع. ونحن مشغولون بتصنيع طائرات بدون طيّار، فقط لنقنع أنفسنا اننا نصنع شيئا مفيدا! مثل شخص لا يقوى على المشي، ويريد أن يطير، بدون حتى أن يقوم بتعديل يديه الى أجنحة.

في الصباح سمع السيد الرئيس طرقا على باب غرفته. كان قائد الجنجويد، كان قد إختفى منذ عدة أيام وعرف السيد الرئيس أنه سافر لتفقد رجاله في بعض مناطق العمليات الحربية. كان يحمل رزمة من الرسائل ويحمل جهاز اللابتوب في يده، بعد أن شربا القهوة، مد السيد الرئيس يده ليرى الرسائل. لكن قائد الجنجويد قال: هناك شئ أهم من قراءة الرسائل اليوم. لم نستلم مرتباتنا منذ ثلاثة أشهر، وكل هذه الرسائل والايميلات هي إعتذارات، في كل مرة يعتذرون عن الدفع يحددون موعدا جديدا ليعتذروا عنه فيما بعد ويحددون موعدا جديدا. وهكذا سينتهي بنا الأمر لنصبح قتلة متطوعين!

صمت قليلا ثم قال: اسمه معاوية إبراهيم عثمان سر الختم.

رفع السيد الرئيس رأسه وقال: أعرف هذا الاسم هل كان ضابطا في جيشي؟

قال قائد الجنجويد: نعم ثم اصبح قائدا لحركة تمرد كانت تحارب في غرب الوطن.

ألا يذكّرك الإسم بشئ آخر؟

صمت السيد الرئيس، لم يتذكر حديثه قبل أشهر مع قائد الجنجويد حول الفتاة الجميلة التي كان يحمل صورتها في تليفونه المحمول وقال أن جنرال الشركة الوطنية يريد الزواج منها، بمجرد ان يفي بوعده ويعثر على شقيقها ويطلق سراحه.

قال قائد الجنجويد بعد فترة صمت: هل نسيت قصة الفتاة التي تبكي السماء بدموع المطر من فرط جمالها. تهلل وجه السيد الرئيس وقال:

هل إستطعت العثور على شقيقها قبل أن يعثر عليه الجنرال؟

قال قائد الجنجويد: أصبحت ذاكرتك ضعيفة سيدي الرئيس، ألا تذكر تلك الرسالة التي قرأتها لي وفيها تطلب الشركة الوطنية أن أقوم بالبحث وإستجلاء مصير عدد من الاشخاص وإحضارهم الى العاصمة؟

لم يبد على السيد الرئيس أنه تذكر شيئا، قال تصلك يوميا عدة رسائل تحوي كلها مهمات مختلفة بطول الوطن كله، يستحيل تذكرها كلها.

أعلن قائد الجنجويد: لقد عثرت عليه!

قال السيد الرئيس: وهل أحضرته وسلّمته للجنرال؟

قال قائد الجنجويد: لا يمكنني إحضار ميت.

صدم السيد الرئيس لخبر الموت: هل أنت متأكد أنه مات؟

نعم، قام رجالي بإعدامه، لابد أنني كنت موجودا لحظة إعدامه هو وستة من رفاقه، في ذلك الوقت كنت موجودا في المنطقة التي تم فيها إعدامه، لكننا كنا ننفذ أحكام الاعدام عدة مرات يوميا، يستحيل أن أتذكر واحدا ممن قمنا بإعدامهم، كنا ننفذ أحكام الاعدام غالبا فجرا، لكن حين إستعرت الحرب وكثر عدد من نلقي القبض عليهم اضافة لمن تلقي أجهزة امن الشركة الوطنية ايضا القبض عليهم وتدفع بهم إلينا لإعدامهم، قمت بإصدار قرار بتنفيذ أحكام الاعدام أيضا بعد الظهر، كانت تلك فرصة لرجالنا الذين لا يحصلون على أجر إضافي، للعمل لوقت إضافي، خاصة أن أجر ساعة العمل بعد الظهر أفضل من العمل صباحا!

كان ذلك قبل قرابة ثلاثة أعوام، قبل حضوري لحراسة العاصمة، كانت إحدى حركات التمرد قد قامت بإحتلال مدينة صغيرة بها مصفاة للبترول، وبعد أن قمنا بطردهم منها وقع هو وستة من رفاقه في الأسر وحسب التعليمات قمنا بإعدامهم بعد أيام.

ثم رفع يده التي تقبض بإبتهاج على مظروف رسالة متسخ، وأعلن: لكنني عثرت على كنز صغير، وجدت أحد حرّاس السجن الذي أحتجزناهم فيه قبل إعدامهم محتفظا برسالة تركها له الملازم معاوية إبراهيم وطلب منه إرسالها لشقيقته.

نظر السيد الرئيس بتشكك نحو الرسالة وقال: ولماذا لم يرسلها طوال هذه الفترة؟

قال لي أنه لم يجد شخصا يثق فيه يمكنه تسليم الرسالة، وكان ينوي السفر لتسليمها لشقيقته بنفسه لكنه أصيب بمرض السل، وكانت صحته تتدهور طوال السنوات الماضية حتى شارف على الموت، حين سمع أنني أبحث عن معلومات عن الرجل أرسل لي من أبلغني أنه يرغب في مقابلتي لشأن يخص الملازم معاوية إبراهيم. أعطاني الرسالة، وذكر لي أن المرض الشديد أقعده عن تسليم الأمانة طوال سنوات، ثم جعلني أقسم على المصحف أنني سأقوم شخصيا بتسليمها لشقيقته!

قال قائد الجنجويد الآن لم يعد لجنرال الشركة الوطنية من سبب يجعله يتزوج من الفتاة الجميلة، لن يستطيع إحضار شقيق الفتاة كما وعدها كشرط لإتمام الزواج، أنا أحمل وصية شقيقها، من يقوم بتسليم وصية الراحل الأخيرة لشقيقته هو الأحق بالزواج منها، سأقول لها أنني رأيته وحاولت إنقاذ حياته، لكنني في ذلك الوقت لم أكن أملك أية سلطة، لحسن الحظ أنني جلست إستمع لساعات لحارس السجن الذي تسلمت منه الرسالة. حكى لي كثيرا عن الملازم معاوية حتى صرت كأنني أعرفه، حكى لي عن شجاعته وإخلاصه لزملائه، وكيف ساهم عدة مرات في إنقاذ الجرحى وعلاجهم، وأنه كان يحلم أن يعود السلام ويعود للعيش في مدينته القديمة ويتزوج من الفتاة التي أحبها وظل لها وفيا طوال عمره. حكى لي حتى عن ذكريات حياته الأولى في بيت جده بعد موت والديه في حادث أثناء أدائهما فريضة الحج، وعمله لفترات في مصلحة السكة الحديد. وأنه كان يوزع وهو لا يزال صبيا صغيرا منشورات تحض على الثورة على النظام العسكري، حتى انواع الأكل التي يحبها عرفتها من حارس السجن، الذي أصبح صديقا حميما للملازم. وقد إعترف لي أنه حاول مساعدته ليهرب، لكن كان تدبير هرب المجموعة كلها صعبا وقد رفض الملازم أن يهرب ويترك زملائه. لكن الحارس قام بتوصيل رسالة لشخص يعمل مع حركة التمرد التي ينتمي لها الملازم معاوية، على أمل أن تتمكن الحركة من الهجوم على السجن وإنقاذ السجناء، لكن الحركة التي تعرضت لضربات قوية فقدت فيها معظم رجالها وعتادها لم تتمكن من الهجوم على السجن الا بعد إعدام المجموعة بأيام، وحين حكى لي تفاصيل الاعدام بكى الحارس بكاء مريرا كأنه فقد والده أو إبنه.

يمكن للجنرال الزواج من إحدى أرامل الشهداء. إشتعلت جبهات الحرب مجددا، وسيكون هنالك شهداء كثر خاصة أن الشركة الوطنية ترسل كبار موظفيها لفترات محدودة لميادين القتال. يمكنني المساعدة إن أشار لي الجنرال أنه يرغب في استشهاد أحدهم حتى يخلو له الجو ويتزوج من أرملته!. يا للكارثة! ألا يتعب هذا الرجل من الزواج! الناس تقضي عمرها كله تعمل وتخطط لكي تجد بعد تعب وعناء فرصة للزواج، وهذا الرجل لا عمل له ولا خطط

سوى البحث عن النساء الجميلات. هناك قسم كامل في السكرتارية التابعة لمكتبه كل مهمتها هو البحث عن النساء الجميلات لهذا الرجل.

صمت قائد الجنجويد قليلا، كان يبدو سعيدا بإنتصاره المحتمل على الجنرال في معركة الحب، برسالة الميت التي يحملها. ثم قال: ذات مرة وصلت برقية من مناطق العمليات كان بها قائمة بأسماء الجرحي وقائمة بأسماء الشهداء، حدث خطأ ما وتحولت قائمة الشهداء الى قائمة جرحى وقائمة الجرحى الى قائمة شهداء. إختار السيد الجنرال بعد فترة أرملة أحد الشهداء للزواج منها وأختار بعض رفاقه أيضا من أرامل بقية الشهداء. في ليلة الزواج الجماعي وصل الشهيد الذي تزوج الجنرال من أرملته. كنا نحن نقوم بتأمين حفل الزواج حين ظهر الشهيد، لم يتذكره أحد في البداية، الناس ينسون بسرعة حتى الأحياء فما بالك بمن توفي! حين عرف الرجل أن زوجته هي العروس أخرج سلاحه وفتح النار على الجميع، مات ثلاثة من المدعوين ونقل عدد كبير من الجرحى الى المستشفى. لقد حسم الأمر بنفسه. فبعد أسابيع قليلة أدين بالقتل العمد، جرّد من رتبته العسكرية، ونفذ فيه حكم الاعدام! أصر الجنرال على ان يتزوج أرملته رغم أنها لم تعد زوجة شهيد بل قاتل! لكن الجنرال أعلن اننا لا زلنا نحتسبه شهيدا خاصة وانه إرتكب جريمته تحت تأثير جنون مؤقت! وصدر فيما بعد قرار جمهوري بالعفو عن الرجل بعد إعدامه، وأعيدت له رتبته العسكرية!

قال السيد الرئيس: وماذا سيستفيد من العفو ومن رتبته العسكرية بعد موته؟ أم يقصدون أنه قد يجد فرصة عمل في مجاله في الدار الآخرة وإعادة رتبته العسكرية سيمنحه فرصة عدم البدء من نقطة الصفر هناك؟

ضحك قائد الجنجويد وقال: هذه اشياء تفهونها أنتم ضباط الجيش! اعتقد أن ذلك شئ معنوي، وربما يستفيد ورثته أيضا من إمتيازات الرتبة العسكرية، يحصلون على معاش أو مكافأة نهاية الخدمة!

عاد السيد الرئيس ليسأل: لكن كيف تستطيع التأكد أنه كان ضمن المعدمين، ان كنتم تعدمون كل يوم عشرات المتمردين كما ذكرت؟

قال قائد الجنجويد: لقد شككت مثلك في البداية لكن الرسالة حسمت الأمر، وشهادة جندي الحراسة، رجالنا لا يبالون بأسماء من يطلقون عليهم الرصاص. لكن حرّاس السجن غالبا ما يقيمون علاقات صداقة مع بعض السجناء ويحملون وصاياهم الأخيرة. وفي تلك الفترة

التي وقع فيها في الأسر لم يكن هناك عفو عن حملة السلاح كما حدث لاحقا، بالعكس كانت التعليمات تقضي بعدم القبض على أية اسرى، لذلك كنا نقوم بتصفية جميع من يستسلموا وكل الجرحى الذين يبقون في ساحات المعارك. أحيانا كنا نحتفظ بالأسرى حتى يقوم بعض موظفي جهاز أمن الشركة الوطنية الذين يرافقون قواتنا بإستجوابهم والحصول على معلومات منهم حول أماكن قوات التمرد والقبائل أو الأشخاص الذين يساعدون الحركات، وفي الغالب يتعرض مثل هؤلاء الأسرى لتعذيب رهيب، معظمهم يموتون اثناء التعذيب، بسبب رفضهم للتعاون مع جهاز أمن الشركة الوطنية، ويكون أعدامهم رمزيا لأنهم يكونون موتى بالفعل حين يواجهون فريق الاعدام. أعتقد أنه أعتقل لفترة، خاصة وأنه كان ضابطا في الجيش وكان قياديا في حركته، ما يعني أنه يمتلك كنزا من المعلومات، هذا يفسر سبب الاحتفاظ به وعدم إعدامه لحظة وقوعه في الأسر، لحين إستجوابه، كان لديه الوقت لعمل صداقات مع الحراس والحصول عبرهم على ورق وقلم وتسليمهم وصيته.

لم يفقد السيد الرئيس الأمل وقال: ألا يستطيع البعض الهرب، ربما هرب بعد أن كتب هذه الرسالة؟

هناك حالات هرب قليلة ربما بتواطؤ من حرس السجن، لكن الحارس حكى لي أنه شاهد إعدامه، وأنه فك القيود من أقدامه بعد إعدامه وأن جسمه كان كتلة من اللحم والدم بسبب غزارة الرصاص الذي أطلقه رجالي نحوهم. رجالي لا يحبون أن يستيقظ الموتى مرة أخرى، ويشهدون ضدنا. ذات مرة هاجمنا إحدى القرى، قمنا بأسر النساء والاطفال، وأعدمنا الرجال، جعلناهم يجلسون على الأرض كلهم في مكان واحد وأمطرناهم بالرصاص. بسبب عجلتنا لم نتأكد أنهم ماتوا جميعا، والنتيجة أصبح بعض من نجوا من الموت منهم، شهودا لدى بعض المنظمات الدولية التي إتهمتنا بإرتكاب جرائم حرب، وإنضم بقيتهم لبعض الحركات المسلحة.

أطرق السيد الرئيس حزينا وقال، لقد سمعت به كان ضابطا متميزا، كان أفضل ضباط فرقته رغم أنه كان اصغرهم سنا. حتى تلك اللحظة لم يتذكر السيد الرئيس أنه تسلّم قبل شهور قليلة عريضة من سيدة مسنة تطلب فيها إطلاق سراح حفيدها اليتيم.

نهض قائد الجنجويد قائلا: سأذهب للبحث عن الفتاة قبل أن يتزوجها الجنرال بالقوة، لقد ابلغتهم بوفاة شقيقها بالتليفون، قال لي الجنرال لا تخبر أحدا بذلك ربما أعدم رجالك شخصا

آخر. شرحت له أنني تأكدت بنفسي من إعدامه، وإلتقيت الشهود. لكن يبدو أن لديه خطة ما، أخشى أنهم يريدون خداعها بشخص يشبهه حتى يكمل زواجه منها!

دخل السيد الرئيس الى المطبخ ليعد إفطاره، لم يحضر الطباخ اليوم، ربما كان مريضا. كان يشعر بالحزن، فكر وهو يصب سائل البيض المخفوق على المقلاة الساخنة، ماذا لو كان قائد الجنجويد يكذب، الخطاب يمكن تزويره. لكن الفتاة ربما تتعرف على خط شقيقها. الشهود أيضا يمكن تزويرشهاداتهم. لكن قائد الجنجويد يبدو جادا في سعيه للزواج من شقيقة الملازم المغدور، ولا حل له سوى أن يموت الضابط ان لم يكن قد مات بالفعل. يا للكارثة! هل تصبح رغبة الفتاة في رؤية شقيقها أمامها شرطا للزواج من الجنرال سببا في موته ؟ قرّر أن يعتمد على بعض مصادره القديمة لمحاولة تحديد مصير الضابط الشاب. رغبة الجنرال في الزواج من الفتاة الجميلة كان يمكن أن تنقذ الضابط الشاب لو كان حيا، ورغبة قائد الجنجويد في الزواج منها، ستعجّل بموته إن كان حيا.

حين وصلنا الى القصر لم تجد قواتنا أي مقاومة من بقايا قوات الجنجويد، التي لم تحارب كثيرا كما علمنا لأنهم لم يتسلموا مرتباتهم منذ أشهر من الشركة الوطنية التي كانت تدير الوطن. في تلك الفترة وبعد هروب أعداد كبيرة من منسوبي الشركة الوطنية الى خارج الوطن، وحين لم تجد قوات الجنجويد من يدفع مرتباتها عادت للسلب والنهب، كانوا يدخلون البيوت وينهبون كل شئ، ينهبون الطعام وكلما تقع عليه أيديهم من ملابس وحلي ذهبية وأجهزة كهربائية، حتى الأثاث والسجاد كانوا يقومون بنهبه وبيعه لاحقا في أسواق الجمعة. حتى تحول الوطن كله إلى أكبر سوق للمسروقات.

كان جميع منسوبي الشركة الوطنية قد هربوا تاركين كل شئ لرحمة الجنجويد، في البداية كان بعض الجنجويد يحرسون بعض الأحياء التي يدفع لهم سكانها بعض المال مقابل حمايتهم، لكنهم في النهاية حين إكتشفوا أن الشركة الوطنية أخلت الوطن بكل منسوبيها بعد أن قاموا بتحويل كل أموال شركاتهم وبنوكهم الى الخارج وباعوا كل ما يستطيعون بيعه من الشركات والأراضي الزراعية. حين إكتشف الجنجويد هروب منسوبي الشركة الوطنية كلهم خارج الوطن قاموا بنهب نفس الأحياء التي كانوا يتولون حراستها، كما نهبوا ما تبقى من مؤسسات الشركة الوطنية كلها، حتى قطارات السكة الحديد التي بقيت تعمل قاموا بنهبها. ثم قاموا بتسيير قطار للنهب، كان يتوقف في المحطات النائية بزعيق صفارته التي تصم الآذان، وحين يتقاطر المسافرون لركوب القطار، يقوم الجنجويد ببيع التذاكر لهم، ثم ينهبون حقائبهم وأموالهم والمواد الغذائية التي يحملونها، ويأمرون المسافرين بمغادرة القطار، كان قطار النهب يتوقف أيضا في بعض المحطات ليلا ويقوم الجنجويد بمهاجمة القرى النائمة ونهبها وتخزين المسروقات في القطار. وحين لا يصبح هناك مكان شاغر في القطار يعودون به الى العاصمة لبيع المسروقات، ثم يسافرون بقطار النهب الى رحلات نهب جديدة في مناطق أخرى من الوطن. كانوا يخصصون جزءا من عربات قطار النهب،

للحيوانات، للجمال والأبقار والحمير، وحتى الدواجن والبط. كانوا ينهبون حتى الحمام وطيور القطا التي يصطادها الصبية بعد موسم الحصاد، وطيور الزينة التي يحضرها بعض الهواة، قال أحد الجنجويد: الناس لا تجد ما تأكله في كل مكان، والبعض يربون الطيور والأسماك ليتفرجوا عليها!

وبعد أن ذاعت شهرة قطار النهب، أصبح المواطنون يخلون القرى بسرعة حين يسمعون صوت صفارته من على البعد، ويلوذون بالفرار مع بقية مقتنياتهم القليلة التي تبقت من غارات الشركة الوطنية والجنجويد. كان المواطنون يخبئون مقتنياتهم التي تبقت في الغابات والصحاري البعيدة عن محطات قطار النهب، الذي كان يذرع الوطن كله مثل ثقب أسود متحرك، يبتلع في جوفه كل شئ، لا يترك حمارا أو بقرة أو أجهزة كهربائية، حتى الأشجار في المناطق القريبة من خط القطار قاموا بقطعها وتحميلها في القطار، حتى أبواب البيوت الحديدية، والمقاعد ومناضد خشب السنط. عبر قطار النهب في إحدى جولاته محاذيا لنهر النيل، فتوقف القطار دون الحوجة لمحطة، قام الجنجويد بنهب الأسماك التي كان الصيادون على وشك حملها للاسواق، كما قاموا بنهب عدد من قوارب الصيد الصغيرة، وحين توقف مركب شراعي في المكان، قاموا بالاستيلاء عليه، وبسبب صعوبة شحنه في القطار قاموا بتفكيك الصاري والقماش الضخم، وأجزاء من المركب لحشره داخل القطار، ومن حسن حظهم جذب الفضول ايضا تمساح عابر في نهر النيل، قاموا فورا بصيده ببنادق الكلاشنكوف وشحنوه في القطار. وخوفا من غارات قطار النهب، أصبح اهل المدن والقرى النائية يقومون بعمل لجان من الشباب للمراقبة خارج المدن، لرصد صوت القطار من على البعد وتحذير الناس، حين تنبه الجنجويد للقرى الخالية أصبحوا يوقفون القطار بعيدا قليلا عن القرى، ويغيرون عليها بخيولهم وبعد أن يقوموا بنهب القرية، يأمرون سائق القطار بالدخول الى المحطة.

قبل أن يتفرقوا في كل مكان قاموا بنهب القصر الجمهوري، ولأن محطة القطار تبعد قليلا عن القصر، قاموا بمد قضيب خاص يعبر أمام حديقة القصر ونهبوا كل شئ في المكان. كان السيد الرئيس نائما حين أيقظه شخصان حملا السرير الذي كان ينام عليه وخرجا ثم عادا بعد قليل لحمل السجاد وبقية قطع الاثاث، حتى مروحة السقف وأجهزة التكييف قاموا بتفكيكها وشحنها في القطار. بعد مد قضيب القطار الى القصر الجمهوري، أصبحت محطة القصر الجمهوري أهم محطة للقطار، الذي بات يتوقف بعد عودته من رحلات النهب أمام بيت قائد الجنجويد، الذي ظل وحتى لحظة هروبه يقيم في الباخرة المتوقفة في مجرى النهر القديم أمام حديقة القصر الجمهوري.

بقيت مجموعة تعمل في القطار، وجدوا تشغيله مريحا ويدر مالا كثيرا، قاموا بتشغيله في بعض الخطوط النشطة، ينقلون كل شئ: المسافرين والبضائع والحيوانات، في الأيام الأولى تعين عليهم الاعلان في المحطات التي يتوقف فيها القطار أنه يقوم برحلات عادية، وقاموا بإرسال مناد على الجواد، ينادي في الناس بأن القطار العادي إستأنف رحلاته، حين إكتشفوا أن المدن التي يتوقف فيها القطار كانت خالية من سكانها الذين يلوذون بالفرار حالما يسمعون صفارة القطار، ظنا منهم أنه قطار النهب.

وجدنا السلم المؤدي للطابق الأول في القصر مغلقا بالحجارة وقطع أثاث محطم، وأغصان الشوك، حين أزلنا العوائق وصعدنا الى أعلى، وجدنا في نفس المكان الذي قتل فيه الجنرال غردون قبل حوالي قرنين من الزمان، مسنا يبدو عليه الزهد والورع نائما على أحد المقاعد المتهالكة، وعلى منضدة صغيرة بجانبه كانت توجد على طبق متسخ بقايا خبز جاف وعلى الأرض زجاجة ماء، كان المكان أشبه بالكهف من فرط الغبار والأوساخ في كل مكان. كانت هناك آثار أقدام أخرى على غبار الأرضية، عرفنا أن شخصا آخر يقوم بزيارته، لابد انه يحضر له بعض الطعام أحيانا، يا للشيخ الزاهد قال أحد الجنود بصوت مسموع، رد عليه رفيقه همسا: يا له من زاهد يعيش في قصر! وماذا إن لم يكن زاهدا!

لم نشا في البداية إيقاظه لكن العجوز إستيقظ مرتعبا، وحدّق فينا بخوف، يبدو انه كان يعتقد أننا من الجنجويد، لكنه شعر بالاطمئنان قليلا حين رأى بعضنا يرتدون ملابس جيشنا الوطني السابق

قال: هل انتم من جنود جيشي القديم؟

رددنا عليه بالايجاب.

قال هل قمتم بطرد هؤلاء الجنجويد من قصري؟

قلنا له إنهم رحلوا قبل أن تصل قواتنا الى المكان.

ظهر على وجهه الارتياح، وإبتسم للمرة الاولى منذ نصف قرن. مد يده لأحد جنودنا فساعده ليقف على قدميه، كان التعب باديا عليه ربما من إرهاق السهر وسوء التغذية. طلب من الجندي أن يبحث له عن علبة دواء لم يعثر عليها ربما كانت في غرفة نومه في الأسفل.

أخبرناه أننا سننقله الى قصر الضيافة حتى يتم تنظيف القصر وصيانته، لكنه رفض ذلك، قال أنه يفضل البقاء في هذا المكان وأن رجال الشركة الوطنية حاولوا عدة مرات إخراجه من القصر مؤقتا لحين صيانته لكنه رفض ذلك دائما. قال أن كنت قد صمدت في هذا المكان في أيام الخطر حين دمرت قوات الجنجويد القصر ونهبت كل شئ، فلن يكون صعبا أن أبق فيه الآن ما دام جيشي وشعبي يستعيدان زمام المبادرة.

إمتثالا لرغبته قام بعض الجنود بتنظيف الجناح الذي كان يقيم فيه في الاسفل، غرفة نومه والبهو الذي تطل عليه غرفة النوم والحمام والمرحاض. كان يتوق لمعرفة ما يدور في الوطن، أخبرناه أن وفدا من رجالنا سيجتمع معه في الأيام القادمة لمناقشة خطط إعادة الحياة الى الوطن. حين كنا نهم بالمغادرة طلب منا الانتظار قليلا، بحث في جيوبه وأخرج رسالة مهترئة نظر إليها كأنه يعيد قراءتها، لا ليتأكد فقط أنها الورقة التي يبحث عنها، ثم قال لنا: لقد وعدت صاحبة هذه العريضة بإعادة إبنها الذي أسرته قوات الجنجويد إليها. أرجو أن تبحثوا عنه في كل مكان، إذا عثرتم عليه أود أن أراه أولا قبل أن يسافر الى جدته.

جاء قائد الجنجويد في نفس موعده اليومي لقراءة الرسائل، كان يشكو كالعادة من إهمال الشركة الوطنية له ولرجاله رغم أنهم يحمون النظام، أعلن وهو يرخي جسده الضخم في المقعد: لولا نحن لوصل التمرد الى قلب هذا القصر ولنصبوا المشانق في الحديقة، رغم ذلك يتعامل معنا أهل النظام وكأننا جنود مرتزقة يجب فقط أن ننفذ الأوامر، رفع كوب القهوة من المنضدة أمام وجهه وظل على ذلك الوضع لفترة من الوقت، كأنه سيستخدم كوب القهوة دليلا على ما سيقول، أوضح وهو يتحدث ببطء فيما يفكر في شئ ما:

ذهبت بالأمس لمقابلة الجنرال رئيس الشركة الوطنية، تركوني أنتظر عدة ساعات قالوا إنه مشغول ولديه إجتماعات مستمرة مع وفود أوربية ويابانية وصينية. وفي أثناء إنتظاري حضر الشيخ الحفيان فأدخل على الفور! هل يحمل الشيخ الحفيان جنسية أوربية أو صينية؟

ومن هو الشيخ الحفيان؟

رجل يقال أنه يستطيع القيام بأعمال خارقة! حين تتسبب الشركة الوطنية في كارثة ما تستعين به وبرجاله، يعملون مع جهاز الأمن التابع للشركة الوطنية. يقال أنهم يستخدمون الجن لارهاب الناس وجعلهم ينسون كل شئ، تكون جائعا وتشعر أنك ستموت من التخمة. تكون في أقصى حالات الشقاء والعذاب، لا تستطيع إرسال أطفالك للمدرسة ولا تستطيع ابقائهم في بيت لا طعام فيه، إبنك يخرج في مظاهرة فيطلقون الرصاص على رأسه، ورغم ذلك بفضل بركات الشيخ الحفيان، تشعر بالسعادة! بل وتخرج في مظاهرات تطالب بعدم تسليم رؤوس النظام الى محكمة الجنايات الدولية في لاهاي! يجعلون الناس يتخيلون أنهم يعيشون في نعيم رغم أن الناس كلهم يموتون ببطْء في هذا الجحيم. بسبب الأمراض وسوء

التغذية وإرتفاع ثمن الدواء. مرض احد رجالي ذات مرة، لم يستطع الأطباء معرفة مشكلته، وفي النهاية أشار لنا أحد رجال الشركة الوطنية أن نأخذه الى الشيخ الحفيان، قلت لهم إنني لا احب السحرة، قالوا الرجل يستخدم القرآن والأعشاب فقط. ذهبنا الى مسجده وسلّمناهم الرجل، لديهم بيت صغير مخصص للمرضى خلف المسجد، فناء صغير تتوسطه سقيفة من أعواد الشجر المثبتة بين شجرتي نيم.

حين ذهبنا بعد أيام، وجدنا رجلنا مقيدا وهم يضربونه ضربا مبرحا، قالوا إن الضرب جزء من العلاج لإجبار الشيطان على مغادرة جسد المريض! قلنا لهم أن الضرب شديد وقد لا يتحمله المريض، قالوا نحن لا نضربه بل نضرب الشيطان! وماذا لو كانوا يضربون رجلنا؟ هل كنا سنتسلمه شاورما؟ في النهاية توفي رجلنا من أثر الضرب! قتلوا رجلنا وتركوا الشيطان، يا للمهزلة!

قال السيد الرئيس: ولماذا تركوا الشيطان؟

بدا قائد الجنجويد محتارا قليلا كيف يرد على سؤال غير متوقع، ثم قال: قالوا إن الشياطين أنواع، هناك نوع قوي، أصلي! هناك شيطان غير قوي، تقليد، ربما صنع في الصين! عند أول ضربة يولي الأدبار، أما حين يكون أصليا فإنه يتحمل الضرب حتى يفارق المريض الحياة! من سوء حظ رجلنا انه شيطانه كان أصليا! يا للكارثة، كل شئ من حولنا تقليد، اللمبة الكهربائية تقوم بشرائها اليوم وفي نفس اليوم مجرد أن تقوم بتوصيلها في الكهرباء حتى تنفجر، وتصيبك بالصمم! التلفزيون ما أن تندمج في برنامج ما حتى ينفجر، سحبت في المرة الأخيرة حين سمعت صوت إنفجار الجهاز بندقيتي، كنت أعتقد أننا نتعرض لهجوم، السماد والمبيدات الزراعية حتى البنادق والذخيرة كلها تقليد، تطلق النار أحيانا على متمرد فيسقط أحد رجالك بجانبك، لكن حين يتعلق الأمر بالمصائب والشياطين نحصل على أفضل شئ!

بعد خروج الشيخ الحفيان سألت سكرتيرة الجنرال مرة أخرى، متى أستطيع مقابلة الجنرال؟

إعتذرت بأنّ الجنرال مشغول جدا الآن ولديه إجتماع بعد قليل مع خبير صيني!

إنتظرت، وبعد قليل جاء الشيخ النوراني فأدخل على الفور! أذكر أنني رأيته قبل سنوات، كان طويل القامة، أسمر اللون، وعيونه واسعة ولونها عسلي، يشبه الوصف المكتوب في

جواز السفر! اليوم حين رأيته، صار فجأة قصير القامة ورأسه يجلس فوق جسده مباشرة، دون الحوجة لعنق، عيونه زرقاء وصغيرة، تكاد تختفي داخل وجهه! ربما أصبح خبيرا صينيا! يقال أنه يمتلك عددا من الجان يستطيعون عمل كل شئ! لحسن الحظ لا يستطيع الجان حمل السلاح وحرب الحركات المتمردة، والا لوجدنا أنفسنا في الشارع بدون عمل! أو عدنا مرة أخرى لسرقة الحمير!

ومن هو الشيخ النوراني وما هي وظيفته؟

قال قائد الجنجويد: وظيفته إستخدام الجن في تنزيل الدولار! ثم أوضح: هذا يفسّر أسباب إمتلاء الأسواق بالدولارات المزيفة، معظمها هبطت من السماء!

قال السيد الرئيس: ألا توجد هناك دولارات أصلية؟

أين؟ تساءل قائد الجنجويد؟

في السماء التي ذكرتها!

إبتسم قائد الجنجويد وقال: حين تصبح شيخا صينيا ستكون الدولارات التي قمت بتنزيلها مزيفة! يبدو أن الشركة الوطنية تريد أن تنفذ مشروعها القديم، تستعين بالجن من أجل إستخراج الذهب وإقامة مشاريع التنمية! لكنهم حتى حين يستعينون بالجن، يحضرون الجن الصيني، والنتيجة: مصانع تصنع أجهزة لا تعمل أو تعمل مرة واحدة ثم ينطلق الدخان من جوفها! ومشاريع تنمية تتفتت عند هبوب أول عاصفة! وطائرات بدون طيّار يسقط موتورها حين تنطلق الى السماء وتحملها الرياح! وحين تسألهم لماذا لم يتم تثبيت الموتور جيدا حتى لا يسقط، يكون ردهم: نحن مستهدفون بسبب إستقلال قرارنا الوطني وتمسكنا بعقيدتنا! وهل تقول لك العقيدة أن تسرق حقوق الناس؟ الناس يترنحون في شوارع الوطن، ليس لأنهم سكارى يجب جلدهم كما يقولون، بل بسبب حمى الملاريا التي لا توفر الدولة حبة كلوروكوين لعلاجها!

قال السيد الرئيس: ولماذا يستعينون بالجن إن كان الشيخ الحفيان يستطيع تحويل النحاس الى ذهب؟

قال قائد الجنجويد: لأنه لا يوجد نحاس في الوطن ليقوم الشيخ الحفيان بتحويله الى ذهب!

دهش السيد الرئيس وقال: يوجد نحاس في وطني!

إبتسم قائد الجنجويد وقال: بيعت كل مناطق إستخراج النحاس ومعادن أخرى أغلى ثمنا الى شركات أجنبية!

إذا لماذا يجتمع مع الشيخ الحفيان ما دام لا يوجد نحاس لتحويله الى ذهب؟

قال قائد الجنجويد: لأن الفتاة هربت!

قال السيد الرئيس : ماذا تعني ان الفتاة هربت؟

إختفت، كانوا يحتجزونها في قصر الضيافة إستعدادا لموعد الزفاف غدا!

هل إستطعت مقابلتها وأوصلت لها رسالة شقيقها؟

نعم!

وكيف إستطعت ذلك، لابد أن هناك حراسة مشددة حولها!

قال قائد الجنجويد: نعم، حراسة مشددة، لا تستطيع نملة أن تعبر جدار قصر الضيافة الى الداخل أو الخارج دون إذن رجالي!

هل تقومون بحراسة نساء الجنرال أيضا؟

نعم حتى نسائه الأخريات، القدامى، اللائي أحلن للمعاش للصالح العام، تقوم فرقة من رجالي بحراستهن! لديه ثلاث نساء يقمن في قصر واحد، القصر يسميه العامة قصر الشهيدات!

ولكن كيف هربت الفتاة أن كنتم تحرسون القصر جيدا ولا تستطيع نملة عبور الجدار؟

لقد تسلمنا مرتباتنا منذ أيام، لم تكن هناك حجة لنضرب عن العمل لبضع ساعات حتى تهرب الفتاة، قمت قبل أيام بتقديم طلب لإعطائنا مبلغا إضافيا من المال ليستعد رجالي للحرب بعد موسم الخريف، كما طلبت زيادة في مرتباتنا لاتكون في شكل أموال سائلة بل أسهم في الشركات التي تملكها الشركة الوطنية! أو ألا نعمل بالمرتبات الشهرية، بل بنظام المقاولة. كل منطقة تحتلها قوات التمرد، نقوم بالاتفاق مع الشركة الوطنية بنظام المقاولة

على تنظيف المنطقة من التمرد، وإقترحت أن لم يجدوا نظام المقاولة مناسبا أن يتم إحتساب أجرنا بالساعة، على أن نعمل عشر ساعات يوميا. بعد دقيقة واحدة من مرور العشر ساعات لن نطلق طلقة واحدة حتى لو وصل التمرد الى القصر الجمهوري! أو يدفعوا لنا عشرين ساعة يوميا، طوال الاسبوع بما فيها أيام الجمعة، لا توجد عطلات في التمرد. على أن يستمر دفع نفس ساعاتنا إذا تم توقيع معاهدة سلام مع إحدى فصائل التمرد، كما طالبنا بنسبة من ثمن الأراضي التي يتم بيعها لمستثمرين أجانب!

جاءني إتصال تليفوني من أحد رجال الشركة الوطنية أبلغني إستحالة إجابة هذه المطالب في الوقت الحالي، لأن الدولة مشرفة على الافلاس. وشرح لي أن الشركة لم تدفع كل مرتبات موظفي الحكومة عدا مرتبات قوات السلام والتنمية منذ أكثر من ستة أشهر .

ذكّرته بالأراضي الزراعية ومناطق تعدين الذهب التي بيعت لمستثمرين أجانب بمليارات الدولارات. لكنه كان مصرا على كل كلامه فإضطررت لاغلاق الخط في وجهه وسحبت رجالي من كل مكان! لحسن الحظ أنهم لم يتنبهوا في البداية لسحب الحراسة من قصر الضيافة، حين إنتبهوا كانت الفتاة قد إختفت عن الأنظار!

ألا تعرف مكانها؟

إبتسم قائد الجنجويد: الان لا أعرف، المهم إنها تهرب الآن، وبالطبع سوف أعثر عليها!

وهل لا يزال الاضراب مستمرا؟

لا، أعدت رجالي الى أماكنهم، تحدث معي الجنرال ووعد بدراسة المطالب! قال إننا سنستمر في حراسة الأراضي التي تباع لمستثمرين أجانب، وبالتالي سنحصل على أجورنا بالدولار!

لأحب الدولة المفلّسة! قال قائد الجنجويد، لو أعلنوا إفلاسهم سنوجه بنادقنا التي تحمي ظهورهم، الى ظهورهم!

بعد سفر معاوية ودخوله إلى الكلية الحربية، كانت سميرة الأخرى لا تزال أسيرة ندمها وشعورها بأنها أضاعته الى الأبد، طوال أشهر لم تستطع تسليم معاوية الرسالة الثانية التي كتبتها له، تعلن له فيها أنها لا تستطيع أن تعيش بدون حبه، وإنها تفضل الموت على أن تعيش بعيدا عنه، وأنها كانت أسيرة أوهام خاطئة حينما ردت على رسالته بالرفض.

عاد معاوية أثناء دراستة عدة مرات الى المدينة، عاد في المرة الأخيرة حين مات جده، ذهبت سميرة سرا الى محطة القطار لتراه حين يصل، رأته يغادر القطار وهو يرتدي ملابسه الرسمية كضابط في الجيش، رأته في أوج تألقه وقوته، حتى أنها نفضت عن ذاكرتها هواجس الموت التي كانت تؤرقها منذ توقف نبض الخطوات التي كانت تستمع إلى وقعها في ضوء القمر وهي تقطع رحلة السنوات نحوها.

قضى بضعة أيام مع جدته وشقيقته، رأته سميرة مرة واحدة، كانت كعادتها تحمل الرسالة في جيب فستانها، أملا في أن تسنح فرصة لتسليمه الرسالة، كانت تتحرق شوقا لوضع الرسالة في يده، لو كان بإمكانها أن تعرف أن قدره أن يقرأ الرسالة في آخر لحظات حياته، أن آخر كلمة في رسالتها ستكون الإشارة التي ينهمر بعدها سيل الرصاص نحوه، لما كتبتها أبدا.

بعكس الفترة الأولى التي كانت تعد فيها الرسالة وحين تلتقيه تفقد الرغبة في تسليمها له، وتبحث عن حجة لتأجيل تسليم الرسالة، في المرة الأخيرة حين واجهته بدموعها وهي تبكي معه جدهما، إكتشفت أنها تكاد تفقد عقلها حتى تسلمه الرسالة، توقعت أنه سيحضر لوداع خالته قبل سفره، خاصة أن والدتها لم تعد تتحرك كثيرا بسبب مرض في ركبتها أقعدها عن الحركة، لكنه لم يحضر، علمت من جدتها أنه تلقى أمرا من قيادته في الجيش بالسفر فورا ولم يكن لديه وقت كثير فلحق بأول قطار مغادر للمدينة.

قضت سميرة الأخرى عدة أيام في حالة حزن على فشلها في تسليمه رسالتها، كانت تشعر بالحزن والندم، فقد كان بإمكانها أن تذهب مرة أخرى الى بيت جدها لتراه لكنها لم تتوقع أن يسافر بهذه السرعة. كأنها كانت تعرف بأن النهاية الرهيبة تقترب ، وأن عليها أن تحاول إرسال الرسالة بسرعة، كانت تخشى أن يكون إنشغل بحياته الجديدة ونسي حبها، تعرف أنه حتى في الفترة ما بعد رسالة الرفض التي أرسلتها له كان لا يزال باقيا على حبها. لكنها منذ أن رأته يستقل القطار للمرة الأولى حين سافر ليبدأ دراسته، شعرت أنها فقدته للأبد وأنها لن يكون لها دور يذكر في حياته الجديدة التي بدأت مع صفارة القطار، الذي إهتزت عرباته بقوة، وعادت للخلف قليلا، قبل أن يستجمع قواه ليرتقي الجبل الى الأبد.

فكّرت أن ترسلها مع أي مسافر من جيرانهم، لكنها خشيت ألا يستطيع مقابلته، بسبب طبيعة عمله التي تجعله في حالة سفر دائم. قررت في النهاية أن ترسلها عن طريق البريد، ذهبت الى مكتب البريد القريب من محطة القطار، لحسن الحظ كانت تعرف إسم وعنوان الوحدة التي يعمل بها. كانت قد عثرت بالصدفة قبل أشهر على رسالة منه الى سميرة فيها عنوانه. قامت بكتابة العنوان بسرعة في ورقة وإحتفظت بها.

ستزحف رسالتها في بريد الصحراء، تتنقل من قطار الى قطار، تطارده مثل قدر، حين تصل الى وحدته، كان هو قد غادر المنطقة في مهمة عسكرية لن يعود منها أبدا، مهمة ستنتهي بإنضمامه الى إحدى الحركات المتمردة بسبب رفضه تنفيذ أوامر إقتحام بعض القرى بحجة وجود متمردين فيها. كان رفضه مبنيا على أن المواطنين المدنيين هم من سيدفعون ثمن هذه الحرب وأن من واجب الجيش حمايتهم وليس نقل الحرب الى قراهم الآمنة حتى لو كانت حركات التمرد تستغل المناطق السكنية. لكن الميليشيات التى تحارب الى جانب الجيش لم تكترث بذلك، كانت تقتحم القرى وتشعل النار في أي شئ في طريقها.

في الرسالة الوحيدة التي أرسلها قبل سنوات لسميرة الأخرى، كان قد كتب لها أنه لا يعرف كيف سترد على رسالته، إنه لا يعرف شيئا من مشاعرها نحوه، لا يعرف سوى أنه يحبها وسيظل وفيا لحبها حتى الموت.

لقد حافظ على وعده رغم كل الأهوال التي مر بها، حتى اللحظة التي واجه فيها فرقة الاعدام، في شريط الذاكرة الذي مضى يستعرضه وهو مربوط الى عمود الاعدام، رأى البدايات النائية في ذاكرته لموت كان ينمو في عيني سميرة الأخرى، في صورة حزن خارق لم يكن سوى مرآة يرى فيها البذرة التي كانت تنمو في ذاكرته، حتى تنفجر في لحظة

إكتمالها في ومضة نور خاطف، بهرت عينيه، حتى أنه مد يده بسرعة ليغطي وجهه. معتقدا في البداية أنها بفعل الرصاص، قبل أن يكتشف أن الرسالة التي لم تصله أبدا من سميرة الأخرى كانت تنبسط أمام عينيه مثل ومضة حياة نهائية، مثل جسر سيظل يربطه بهذا العالم حتى لو تسربت الروح من جسده، مضى يسابق سيل الرصاص القادم قبل أن يطفئ نور عينيه، يلتهم سطورها، يغرق في كلماتها، يغسل جسده في سيل عواطفها، يجد شحنة ضوء الكلمات ترفع جسده ببطء، تغسل حتى روحه بينابيع ضوء القمر الذي كانت تختزنه سميرة الأخرى في قلبها مع نبض خطواته، تغسل حتى بقايا الدموع في قاع عينيه يوم فقد والديه، لا يشعر بشئ من هذا العالم ولا حتى سيل الرصاص الذي إنهمر فوق جسده وأجساد رفاقه.